فكري داود

وَقَائِـــع جَبَلِيَّـــة

" المتعاقدون"

رواية

الهيئة العامة لقصور الثقافة
إقليم شرق الدلتا الثقافي

إبداعات شرق الدلتا

أ

- ألم يكن هذا حلمك؟!

ألستَ مَن علّقَ كلَّ الأمل، على تلك الرحلة ؟!

لن تتمكن أبدا من الإنكار، مهما تظاهرَتْ بعضُ حواسِّك به.

لماذا إذن تجتهد عيناك - الآن -، في القبض على دمعهما، ذلك المُصِرّ على الانهمار؟

هاأنتذا وسط الحلم...

قطعتَ خطواتٍ فوق أرضه، وما هذه إلا خطوة جديدة على الطريق.

- ولكن الأهل، والطلاب، الذين بادلوني شجنا بشجن عند الفراق، ونظرات الصغار الجاهلة لما يدور؟

❖ إنه حوار ثنائي، في رأس عبد البديع يشتعل...

...

محطوطٌ بدنُه، فوق مقعد مترب، بسيارة (نصف نقل)، إلى جوار ذي البشرة (المازوتية) - السائق -، والأذن المشغولة، بغناء بدويّ ذئبيّ الصوت.

لم يتمكن وعيُه، من التقاط جملة غنائية مفهومة، يتلاعب الانفصام به، يَعْبُرُ بصرُه الزجاجَ الخلفي، يقع على بياض حقيبته اليتيمة، الذي استحال إلى تُرابيٍّ باهت، وسط هالة هائجة من غبار.

ساعات عشر - هي أضعاف الوقت المعتاد -، وهما على تلك الحال:

يدخل وقت الصلاة، تتسلل سيقانهما نحو الرمال، تنتفخ حنجرة السائق بتكبيرات الأذان، يوجه الأمر لراكبه أن يقيم الصلاة، قبل أن يصلي به إماما، لا يفته التنويه - في كل مرة -، عن أهمية القصر، والجمع عند السفر، إلا أنهما - مع ذلك - كانا يصليان الفرض كاملا، ودون جمع!

شجيرات قزمة نادرة، لم يصادف بصرُه مثيلا لها من قبل...، صبّار، أعوادٌ مُخْضَرَّة، تظلُّ وسط الرمال، وبين كتلٍ جبّارة متباينة الارتفاع.

من تحتهما، يمتد البساط الصحراوي، لا يحدُّه الأفق الشاسع من فوقه، يتنوع: رملياً يأتي، تُنْبِئُهُما - دون نظر- زيادةُ السرعة، يعلو الارتياحُ سحنتيهما.

يردد لسانُ السائق النغمات خلف المغني، ...

يستحيل - البساط - إلى حصوات؛ يعترى بدنيهما ارتجافٌ لاإرادي، تَثْقُل حركةُ العجلات، يختفي الارتياح، ويحلُّ الوجوم، ...

عند الاقتراب من البُقع الهشَّة، يُدير الرجل المَقُودَ مبتعدا، يردد:

كدنا ندخل في (الغريز).

...

جَازَى الله ذلك اليوم، الذي انشغل الفكر فيه بالارتحال، مستورةٌ كانت والحمد لله. هكذا سرح الراكب، قبل أن ينبهه ارتطامٌ أرضيٌّ عارض..

...

كانا في طريقهما من (بيشة). المدينة الأم لمحافظة جنوبية بقُطر عربي، له اتساع قارة -، إلى إحدى قراها القابعة في قلب (البَرّ)، وهو ما يعني الولوج داخل الصحراء، لِتَتَصَادَفُ. بعد أميال عديدة - خيامٌ، وبيوتٌ بدائيةٌ، وجِمال، وأغنام، وأناسٌ ممصوصوا الوجوه، تكسو هياكلهم العظمية، سراويلٌ من جلد بشري محروق.

تتخذ الحكومة من أحد البيوت مدرسة، تلقي إليها - غالبا - بحفنة من المتعاقدين، ها هو - أحدهم -، لم تتم مراسم وصوله بعد، يراوغه سؤال عارض، حول سر اختيار هؤلاء البشر، لتلك البؤر النائية بالذات، تفاجئُه إجابة السائق - في نوبةٍ نادرةٍ، من نوبات كسْرِه لِحاجز الصَّمت -؛ عن الأجداد الذين عمروا الأرض منذ القدم، وعن الولع الشديد بفض مغاليق البَرّ، التي تستعصي على أي أريب، وعن الحياة المتحررة من أي أسر.

...

باغتتهما سحنة الدنيا بالتلبد، أرسلت أمواجا رملية هادئة، سرعان ما عَتَتْ مُطَاوِلَةَ الجبال، الآلَةُ قارب مريض يدور، ما أصعب أن تتحصر الدنيا، في علبة من صفيح، أيصبح (يونس) هذا العصر، أم يتحول إلى مجرد رقم، في كشوف المفقودين؟

قال السائق - الهاديء -:

الدوران هنا يعني الحياة، ليس بعد السكون يا ولدي إلا الموت، وهذي أقدار.

أيمكن أن تحوي حوصلة هذا البدوي المجهول، نبراسا من حكمة؟

جاءت كلمة ولدي غريبة، في موقف كهذا، هل تستحضر الذاكرات

ذويها - الأولاد تحديدا -، عند مواجهة القدر؟

مضت دقائق مبهمة، تحولت الأمواج الرملية - قبل رحيلها -، إلى قمع أسطوري دَوَّار، رأسه في الأرض وفوهته في السماء.

أفرج صدر البدوي، عن تنهيدة ارتياح طويلة، أراح آلته في ظِلِ عارض، لكُتَلٍ حجرية متكاثرة، وَارَتْه قفزاتُه خلف الكُتل لبعض الوقت، عاد ببضعة أغصان جافة، وحيوانين على هيئة فأرين كبيرين، أشعل كِسرَ الأغصان في حفرة قديمة، نَحَرَ الحيوانين، ألقى بهما وسط الجمر، من خلف المقعد سحب فراشا، وكيسا يحوي أرغفة جافة، وزجاجة ماء،...

فاحت رائحة اللحم، نزع الجلدين بمهارة المعتادين، شرع في الأكل، داعيا رفيق الطريق.

قال الرفيق بدهش:

نحن لا نأكل الفئران.

صنع الفم - المشغول -، ضحكة كالثغاء، قال:

هذي جرابيع، نباتية الطعام، طيبة اللحم.

اكتفت اليد المترددة، ببضع كسرات جافة، مع شربة ماء.

تفاجأ - بعد الركوب -، باستمرار المغني في العواء، أخذته نوبة استرجاع، لآخر أحضان والديه، ونظرات المودِّعين المسكونة بخليط نادر، من الشفقة والبهجة والحنين، موقنا - من مقعده هذا - أن العودة عزيزة، وأن معاودة اللقاء أمرٌ عسير، يتنامى هذا الشعور بداخله، منذ أيام ثلاثة هي - حتى الآن - كلُّ عُمْر الرحلة، خصوصا بعد أن أفهمه آخرُ كلام البدويّ، أن ملامح الطريق طارت من رأسه، وأنه ربما تاه.

٢

منذ وقع في مرمى استحقاقها - الإعارة -، لم تكف عن مراوغته:

قَصَرَتْ نفسَها - أولا - على معلمي الثانوي، إذ كان بالإعدادي، ولمّا تبدَّل وضعُه، بدَّلتْ أيضا من وضعها؛ فمُعاروا الثانوي - كما قيل آنذاك - أبتْ كرامتُهم أن ينحطَّ من شأنها، بالتدريس للابتدائي بالبلاد المعارين إليها، ومِن ثم عادت لتقصر نفسها على معلمي الإعدادي - المتواضعين - من جديد، هذا قبل أن تتوقف تماما، لبضع سنوات.

وبين هذه وتلك يتأرجح حلمه، كُرةٌ هو والإعارة لاعب، يركله (بسن) حذائه المدبب، لينحرف بعيدا عن الهدف.

تُرى - بعد أن صادفه الدور -، هل يروقه استدعاء بعض الوقائع؟

...

في طريقه إلى الفصل - ذات خميس، بأحد شهور الدراسة الأولى -، ألقى بجريدته، يتصفحها الزملاء عادةً، قبل أن تعود إليه.

بالفصل احتدم الحوار، حول بعض المؤثرات، في تجربة شوقي الشعرية.

كلمات أمل - إحدى الطالبات - مُخْتَصَرة:

نشأته، ثقافته، نفيه، ...

شكك بعضهم - على عكس معلمهم -، في أهمية النفي كمؤثر قوي في التجربة.

تربطه بهم مساحة من اختلاف مُحَبَّب، أبوي أو ربما أخوي:

الخطيب، حمادة، عزة، إيهاب، عبير، ... تملؤه البهجة بينهم، وتملؤهم، إنها مملكته، التي يُتَوَّجُ فيها ملكاً كل حصة.

فاجأهم الأستاذ شكري، ملوحا بالجريدة، قال:

أربع صفحات بأسماء المعارين.

توقفت المناقشة، علا الفضولُ وجوه الطلاب.

الأسماء متتابعة بلا فواصل، أو إشارات للتخصص، والقبض على اسم

مُحدِّثٍ، يُعَدُّ تنقيبا عن البترول دون مُعدَّات.

قال شكري:

ابحث عن اسمك.

أجاب بفتور:

ترتيبي الثلاثون...، وهم يطلبون ـ عادة ـ من خمسة إلى ستة.

فارَقَ التفاؤل وجه شكري، وهو ينصرف.

...

لم يعد ذهنه خاليا، راودته وساوسه:

أيمكن أن يناله نصيبٌ، من المصادفات النبيلة؟

هذه المرة الوحيدة ـ بعد اليأس ـ، الذي قدَّم فيها الطلب مرغما ـ تقريبا ـ :

يومها، قلَّبَ مدير المدرسة بين يديه، طلبا وحيدا متبقيا، قال:

ـ املأ هذا.

ـ لا ...، أنا لست ناوياً هذه المرة.

ـ والسبب؟

ـ الحركة متوقفة ـ كما ترى ـ، و ترتيبي المتقدم ـ بالإعدادي ـ

لم يشفع، فما بالك وأنا بالثانوي و ...

ـ والله لازم تكتب، وحالاً.

ـ (هه)، ... هات.

...

أخرجه سؤالُ الولد إيهاب، من هذا التداعي:

وهل أثر ألنفي، في حسِّه الوطني؟

ـ حسّ مَن يا ولد؟

ـ حسّ شوقي.

ـ آه، ... طبعاً طبعاً.

عاودهم شكري مهللا، وسبابته تشير، إلى الاسم في صفحة الجريدة.

...

إنه ذلك الخميس الأول، من ذلك الشهر سالف الذكر.

لم يكن من السهل التسليم بذلك، تساءل:

أيمكن؟

❖❖❖

إجـراءات سـريعة ، انتهـت بـه إلى القـاهرة؛ لابـد مـن اجتيـاز المقابلـة الشخصية: .

يرمـي فـمُ الممتحن . الواقـف علـى بـاب مكتبـه . بالاسـم، وسـط القاعـة المكتظة ، تقتحم عيناه القادمين، تَرُدُّ كلمتُه . راجع الوزارة . مَن كان به عـرج، أو عور ، أو ...

تفقدت ذاكرات المنتظرين وقائع قديمة ، لأسواق النخاسة ، بالأفلام العربيـة ، وقصص ألف ليلة.

...

سـأله الممتحن المتحفز:

. أتحفظ قرآنا؟

. نعم.

. اتل مما تيسر.

. بسم الله الرحمن الرحيم❖

قـد أفلـح المؤمنـون❖ الـذين هـم في صـلاتهم خاشـعون❖ والـذين هـم عـن اللغـو معرضون❖والذين هـم للزكـاة فـاعلون❖ والـذين هـم لفـروجهم حـافظون❖إلاّ علـى أزواجهم أو ما ملكت أيمـانهم فـإنهم غير ملومين❖ فمن ابتغى وراء ذلـك فـأولئك هـم العـادون❖ والـذين هـم لأمانـاتهم وعهـدهم راعـون❖ والـذين هـم علـى صـلواتهم يحافظون❖ أولئك هم الوارثون❖الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون❖...(١)

. أشارت يده بالاكتفاء.

. صدق الله العظيم.

. لا تُصَدِّق، هذي بدعة.

. ...!

. مُوقع '' هم في صلاتهم خاشعون'' الإعرابي هو ...

. صلة الموصول، لا محل لها من الإعراب.

. زين.

. مِن أي العصور تحفظ الشعر؟

. من كل العصور.

. هات مما عندك.

---

(١) الآيات من ١إلى١١ / سورة المؤمنون.

- قال عنترة:

سَكَتُّ فغَرَّ أعْدائي السُّكوتُ❖
❖وظنُّوني لأهلِيَ قد نَسيتُ
وكيف أنامُ عن ساداتِ قوْمٍ❖
❖أنا في فضلِ نعمتِهم ربيتُ

- اكتب البيتين. مد يده بورقة بيضاء..

- ...

- ما شاء الله، الخط أحد مفاتيح الرزق.

- ...

- ''مُوَفَّق إن شاء الله''.

إنها العبارة المأمولة، والبديلة، لـ '' راجع الوزارة''، التي تحمل فوق كاهلها الفشل.

أثبت مستشفى (الصفا)، خُلوَّه من فيروس (س). في خطوة تعد الأخطر، بين سائر الإجراءات.، عشرات المرشحين عادوا، ودموعهم في مآقيهم، يحملون. مع الفشل.، نبأ إصابتهم بالفيروس الغريب.

صار بين يديه. في خلال أيام.، تذكرتا طيران، إحداهما من القاهرة إلى جدة، والأخرى. داخلية. من جدة إلى محافظة بيشَة.

تتأمل عيناه. في وجل. عبارة:

(يُسلَّم إلى سعادة مدير تعليم بيشة)، بخط رديء، فوق مظروف أبيض عملاق، محظور عليه. على حامله، و صاحب ما بداخله من مستندات. فتحه.

...

بدا اسم المحافظة غريبا، على آذان زملاء المدرسة، زفَّ الأستاذ رضا ما يشبه البشارة، قال:

واحد من بلدنا هناك،..ولَد (جدع) وينفعك.

في الغد، أتى له برسالة من أبيه، قال:

عليها العنوان.

غرستْ تلك الرسالةُ في نفسه، بذرةً أولية للهدوء.

...

مُحَمَّلٌ هو. عن طريق السابقين. بإرثٍ مزعجٍ، عن ضربات شمس الخليج، وعن الأكسجين الذي لا يكفي الرئات:

كيف عاشوا إذن هناك، قبل المجيء؟!

لا يزال أحدهم ـ حتى بعد البقاء ـ، منشغلا بسعر الدولار، مداوما على ارتداء الجلابيب البيض، مشمرة الذراعين، والشبشب الجلدي، الذي خصصت به فتحة، ينام بداخلها إبهام القدم، مستخدما كلمة (عليك) ـ المشهورة خليجيا ـ بدلا من (بك)، قال لعبد البديع:

سأتصل (عليك)، لأمنحك سر الاستمرار هناك.

٣

عند مفارقته لبطن الطائرة - المكيف -، اصطدم بحرارة الجو، بعد أنفاسه الأولى. المتوجسة -، عاوَدَه الارتياح؛ فالحياة إذن ممكنة.

سوف تقضي ليلة، قبل أن تحتويه طائرة أخرى إلى الجنوب، ستزداد فيها - بالتأكيد - خبرته بالمكان.

❖❖❖

أمام (مباول) مطار بيشة، اجتازت يدٌ غريبة الحاجزَ بين المبولتين، تنتهي اليدُ، إلى شخص (فيليّ) البدن، حاولتْ القبضَ على جزئه العاري، باغتها بلطمةٍ شديدةٍ، قبل أن تفرغ معدته - الخاوية - بقاياها، ...

أهكذا يكون أول القصيد؟

عقارب الساعة، تزحف نحو العاشرة صباحا، ثيابٌ سوداء مضروبة، على القليل من النساء، تجتاز بوابة المطار - خارجة -، تصحبها جلابيب بيض، فوق رءوسها غُتَر - أغطية -، أغلبها حمراء في بيضاء، فوق كل غُترة ينام عقالٌ أسود.

صادَفَ خارج المطار، رفاق ثلاثةَ - عادل وممدوح وهاشم -، بدوا كدجاجات تائهة عن الحظيرة، تعلو جبهة عادل مسحةٌ حزينة، تقارُبٌ ما - غامض - بدا بينهما.

تتحسس أصابع ممدوح لحيته، مُحَمَّلَةٌ سحنتُه بصُفرة الإرهاق، تخفى نظارته - الجديدة - حقيقة مشاعره؛ تسبَّبَ ضعفُ بصره - بمستشفى الصفا - في بكائه، - إذ أصرُّوا على تجديد نظارته، واجتيازه لكشف طبي جديد - ...، وجاء تواجده هنا، ليعلن عن تجاوزه لتلك المحنة.

يواجه هاشم - الأكثر تماسكا - قلقَهم، بالعديد من النكات، يصنع فمه البسمة، لا يدرون أصادقة هي أم مصطنعة.

حملتهم السيارة، إلى أفقر فنادق البلدة، فارقوا الحقائب، توجهوا إلى

إدارة التعليم، آملين في التخلص من الوَجَل.

تتحسس يده - من وقت لآخر - ما اعتبره كنزا:

إنها الرسالة الخاصة، ببلديات الأستاذ رضا، ستكون لديه - حتما - أختام الأمان، في تلك المدينة المبهمة.

لا تتوقف شفتا ممدوح عن التمتمات، مُنْشَغِلٌ هو بـ (برطمان) صغير لعسل النحل، ورغيفين، بكيس لم يفارقه.

في مواجهة قسمات المدير الجامدة، استقام صفُّهم، امتدت أيديهم بالمظاريف البيضاء، تمزقت مشاعرهم مع تمزيقه لأطرافها - قد تحمل بطونها مفاجآت، لم تكن في الحسبان -

ارتفع وجهه، نفذت نظراته في أبدانهم، كأنهم بصدد كشف للهيئة، سأل:

المتعاقدون من (وين)؟

أجابوا عشوائيا:

نحن معارون.

نعم ، أعرف، كلكم هنا متعاقدون ، ... (من وين)؟

أوشكت ألسنتهم على التحرك.

ارتفعت سبابته - فيما يشبه التحذير -، قال:

- بنظام ... تعلموا...

...

أسوان،

دمياط،

مطروح،

الوادي الـ...

- مُرُّونا بعد ساعة.

تسلموا خطابات التوزيع، المتعاقدون يملؤون الطرقات، في أيديهم ترتجف الأوراق بأسماء مدارسهم الغريبة:

الحَمْضَة ، شَمْران، الصّبيخَة، العفيرية ، جاش، الغزالة ، آل سويدان، الجيرة، ... تُسمى كل قرية بـ (ديرة).

داروا بالأسئلة على السائرين؛ قدَّم العارفون التهنئة لهاشم على (شمران)، اختلفوا حول حظيّ عادل وممدوح، وجاء رد مَن تعرف على (ديرة) عبد البديع.

وهـم قلة -، على هيئة نظـرات تحسُّر ، أو كلمات مواساة ، شذَّ عن ذلك أحد موظفي الإدارة، قال - ماسحا لسانه بشفتيه -:

ما أحلى رحلات البرّ هناك، ... ومنح بعدها قُبلة لأطراف أصابعه.

قبـل أن تستبـشر نفـس المتعاقـد ، غمـزتْ عـين الرجـل، لأحـد زملائـه الممتلئين، مضيفا:

ديرة العنود هذه، ولاّ (أيش) يا عبيد؟

اكتفى عبيد بنصف ابتسامة، مصحوبة بلمعةٍ في عينيه.

...

قارب النهار على الانتصاف.

قصد هاشم وممدوح الفندق، بينما صحب هو عادلا، للبحث عن العنوان المسطور، فوق الرسالة الثمينة.

بـدت مظـاهر الحُسن على المدينـة، تقّسم خطـوط النخيـل، كـل شـارع رئيسي إلى طـريقين، الأبنيـة مـن دوريـن - غالبـا -، يكسوها البياض، المحـلات عديدة متنوعة - كما تشير الكتابات أعلى أبوابها -، أجهزة التكييف بارزة في كل الجُدُر، القليل من الناس، يستخدمون أرجلهم وسيلةً للانتقال، (كوكتيل) عجيب من السيارات.

(مكتب آل دبيس للخدمات)

يصل ليد الابن العزيز / ضياء الجزار.

هذا على وجه المظروف، الذي جاء على ظهره:

شكرا لحامل الرسالة

والدك :

زغلول الجزار

رأس الخليج - شربين - دقهلية.

لمحتْ عيونهما (اليافطة)، تسارعتْ دقات قلبيهما، أبطأها باب المكتب الموصد، ككل يوم في مثل هذا التوقيت - بين صلاتي الظهر والعصر -، هداهما إلى السكن - القريب -، قلةٌ نادرة من المترجلين:

حارة ضيقة، مختفية خلف الأبنية الناصعة، بيت منـزو يعتليه القِدم، انفتح الباب المتآكل بعد بضع ندهات، دلّتْهما إشارةُ فاتح الباب إلى الحجرة المنشودة، وصـوته المسلوخ يصيح (كَسَّار) - أي جزار -، عَبْـرَ دهليـزٍ مُعتم، يعترض أحد جدرانه حوض قذر، تفوح من صفيحة تحته - بديلة عن خرطوم الصرف -، رائحةُ

كلب نتن، سحق حذاء عادل ما يمكن أن يكون خنفسة، رصدت عيونهما - بحجرات كالجحور -، أشباها لذلك الذي فتح الباب، بسحنات هندية، أنصافهم العليا سمراء عارية، فيما تلتف السُفلى بخرَق غجرية الألوان.

سقف الحجرة قريب، من تحته انحشر سرير ضيق صديء، وثلاجة قزمة، يحمل ظهرها تلفزيونا صغيرا، أمامها عدة أقدام من خلاء الأرض، فوق السرير يتمدد جسد أسمر ممتلىء، تملأ رائحة عرقه الفضاء المتاح، تفارق كلماته فمه في بطء شديد، أتم جلوسه بصعوبة، امتدت يده بفتور، لتصافح أيديهم المتعطشة:

- حضرتك ضياء الجزار؟

- لا...، ابن عمه.

- هو موجود؟

- كان (موجود)، يعمل الآن بمجزر في أول البلد.

- يعني (بعيد)؟

- (شوية)، أي خدمة؟

- خطاب من والده.

- هات أوصله.

- تفضل.

لم يند عنه أي تساؤل مُفتَرض - في حال كتلك -، بدا ككائن يقبع خارج الزمن، ألا من كوب شاي؟ - تساؤل يبدو تافها -، كم تمادى العشم في غيّه معهما - قبل اللقاء -، فإلى جانب تقديمه - المتوقع - للطعام والشراب، سيكون - بالتأكيد - خيرَ ملاذ في أي آن.

حاولا مقاومة الأسى، الشوارع نادرة المارة لاتزال، احتواهما أحد المساجد، أديا صلاة العصر - التي دخل وقتها -، بدأت المحال في فتح أبوابها.

تثاقُلٌ ما حلَّ على خَطْوه، لم يتخلص ذهنه بعد، من أثر المقابلة، (أليسوا ضيوفا) لابن عم الرجل، وبالتالي (ضيوفا له)؟

أسئلة كتلك، ظل يمليها عليه، منطقُ الحياة في ريف مصر.

تنبه على نفاذ ريالاته، تحسس الألف جنيه في جيبه، تنهد بارتياح - يعلم أن العُمْلَة عُمْلَة، في أي مكان -، ذكَّرَه عادل بضرورة تحويلها إلى ريالات، قال موظف البنك:

لا نأخذ (مصري) الحين، عليكم بغانم المصري، في شركة الباني - شركة

لنقل الركاب.، العائدون إلى مصر يستبدلونها منه، بالريالات الباقية معهم.

قال غانم. خرساني الوجه.:

الجنيه بريال'' راس في راس''.

قال أحد الواقفين:

الجنيه بريال وعُشر يا رجل.

انقلبت شفتا غانم، قال:

أنا قلت كلمتي.

عَاوَدَ عبد البديع ثانية منطقه الريفي،...

لم ينقضِ اليوم الأول بعد، هل سيمثل كلُّ مَن يصادفهُ . من الآن فصاعدا.، حالة فريدة؟ أيمكن. بمرور الوقت.، أن يتحول هو نفسه إلى حالة؟

استدار بالريالات غير مندهش، لتلك الطبقة المائية الشفيفة، في عيني رفيقه.

في الطريق إلى الفندق؛ تقاسما رغيفين، ويضع حبات من طماطم، سوف يجمعهما . مع الآخرَين . ليلٌ جديد، لا تُعْلَم لنجومِه أيَّةُ مقاصد.

٤

في الصباح وبعد مشاورات، تحتم توجههم إلى موقف (الدَّبَّاب) - عربات نصف النقل -.

انطلقت بممدوح وعادل إحداها - طريقهما واحدة تقريباً -، وإلى شمران انطلقت أخرى بهاشم، حاملا ابتسامته المبهمة.

الموقَف سوقٌ محفوفٌ بالفوضى:

سيارات متباعدة دون نسق، أبدان السائقين - الفاحمة - تدور كعنزات نحيلة، بشفاة غليظة، زبائن كجزر متناثرة، بعضها بجلابيب بيض، وغُتَر يعلوها العقال، والبعض - مثله - تبدو هيئاتهم - بالقمصان والبناطيل - غريبة و حائرة.

هاهم رفاق يومه الفائت، قد ذهبوا مستسلمين لحال سبيلهم، يلح على ذهنه - الآن -، الانصياع لهاجس العودة، الذي يتلاعب به، ... هل يمكن؟ أيمتلك حقا آلية التنفيذ، متحملا - في مصر - نظرات الاستهزاء، من ذلك الفاشل، الذي وأد الحلم في مهده؟

...

- وأنت ...

أنت يا مصري، (وين) رايح؟ - هذا أحد السائقين -

- أنا ؟

الـ ... الـ... أخرجت يده خطاب التوزيع -، قرأ:

الديرة.

- راحت عيون السائل، عند بعض رفاقه، تبادلوا بضع كلمات خافتة، صاح أحدهم - أخيرا - :

هذي ديرة العنود، مائة كيلو بالبرّ، ...

قال بلهجة أقرب إلى التهكم:

اسمع يا مصري:...
آخُذ ثلاثمائة ريال.

- ...

تساءل في نفسه:
مَن العنود هذه؟
ومن أعلَمَهم بمصريتي؟
هل صارت كلمة مصري هذه مريبة؟

❖❖❖

ألقى السائق بالحقيبة اليتيمة، في حوض الآلة، التي انطلقَت بهما، ولا تزال...

عشر ساعات من السير، والتوقف، والغناء غير المفهوم، والاسترجاع الصامت، والصلاة، والغبار، والانتظار، والجبال مختلفة الألوان والأحجام، وقطعان الأغنام والإبل، والرجال والنساء، البادين كهياكل عظمية محترقة، والشجيرات، والنباتات القزمة السميكة، و...

لزمَ لسانُه أسفلَ فمه، فالأمر - على ما يبدو - سيطول، وما هو إلا بصدد حلقة. من حلقات مجهولة قادمة، مكنونات صدره عصافير، تحاول مغادرة العش، لكنها تفاجَأ بحلول العجز، فرس النهار رامح، الغروب على وشك الحلول.

لاحت - على مدى الرؤية - أبنيةٌ شائهةٌ، تمتم السائق:

يا هلا بالديرة -

ارتدَّت التمتمة سخونة، في بدن الراكب.

الآلة تقاوم أنين الإرهاق، الأبنية بلا أسقف - غالبا -، أوقاطنين، بالقُرب من مبنى رمليّ توقفَتْ، حطتْ عيونهما - عند المدخل - على ذلك المنتصب، بكرشٍ ممتلىء، ووجه أبيض، يُعلِّقُ طرف ثوبه بأصابعه، كاشفا عن قدميه الحافيتين، صاح السائقُ:

(وين) المدرسة يا... ؟

- ارتج صاحب الكرش زاعقا:

انزل يا أسود.

- أنا أسأل عن ...

- اخرس يا عَبْد.

سيطر الارتباك على السائل.

اقتربت خطوات الآخر غاضبة، وَاصلَ:

كيف تكلم الأمير وأنت راكب يا ...؟

هات رُخصك.

اندفع الرجل، والأوراق ترجف بين يديه، ردد:

والله ما أدري يا أمير، والله ما ...

- أطاح الأمير بالأوراق، ألقى نظرة داخل السيارة، قال:

وأنت يا مصري.

لم يُفاجأ - هذه المرة - بكلمة مصري، قال:

أنا.. مُـ.. مُعار، .. مُعار أنا.

- لملم البدوي أوراقه.

صاح الآخر - مغتوم الملامح -:

بالله، لولا المصري هذا لسجنتك، ..أشار نحوه آمرا:

اصعد هذا المرتفع القريب، ثم اهبط، تجد سكنُ المتعاقدين.

...

اجتازت الآلة المرتفع بارتباك، لا يضاهيه سوي ارتباك راكبيها، وسط المرتفع يقبع بيت كبير، ذات أضواء خافتة، عند المهبط ظهر بيتٌ آخر، كأنه كفة لميزانٍ، البيت الكبير رمانته، والإمارة كفته الأخرى.

قلب مقعد السيارة، سحب من تحته عصا غليظا، قال:

الحرص لدى البدو غريزة، ما تدري كيف يستقبلك الآتي...

دقَّ البابَ دقاتٍ حذرة.

خرج سريعا شخص باهت البشرة، تحت أنفه شارب قصير، مبتسم الشفتين، من بينهما تتدفق كلمات الترحيب، كأنها من شريط مسجل، بدا - لأول وهلة - مستوعبا للموقف، فاكاً لشفرته، رفعت يده الحقيبة عن الصندوق، دفعت بها خلف الباب، هدأت هواجس المتعاقد الجديد قليلا، دسَّ السائق أجْرَهُ بسيَّالته، أطلق لعجلاته سراح الإياب، رافضا دعوات الانتظار.

❖❖❖

أخوك سرحان - هكذا قدم نفسه -

...

باحة فضاء، مستطيلة الشكل، عديمة السقف، في المواجهة، يتربع رجل

أسمر، نافر العضل، غليظ الشارب، يقارب الخمسين عاما، منشغلٌ بصب الشاي، في كئوس صغيرة، هبَّ مرحبا.

قال سرحان:

خميس، ...عامل قديم لدى العنود.

أهلا وسهلا...، العنود؟

نعم...، صاحبة البيت هذا، والمدرسة، والمزرعة، و ...

تداخَلَ خميس ـ وهو يشير صوب المرتفع ـ:

بيتها جارنا هناك.

نظر سرحان عند الباب قائلا:

هات الحقيبة يا خميس.

همس للوافد الجديد:

وأنت يا بطَل، عليك بالدُّش.

الغبار يثقل أهداب عينيه، ربتتْ راحته ظهر الحقيبة، ثارت حوله هالة ترابية، عثر ـ بصعوبة ـ على كيس الغيارات الداخلية، والمنشفة، و شبشب (حمّام)، تلفُّه ورقةٌ من جريدة مصرية، تَعلُق بها ـ لا تزال ـ رائحةُ امرأته، قرَّبَها من أنفه، وإلى قلب الحقيبة أعادها بعناية.

للماء المتسرب من رأسه طعم الملح، ناوله خميس ـ بعد الدش ـ كأسا من الشاي، ردَّ سيجارة سرحان شاكرا، سحب سرحان من سيجارته نفسا، مد يده بقلم وورقة، ومظروفٍ بطابعٍ للبريد، أخرج نفَسَ الدخانِ مع الحروف، قال:

اكتب لأهلك...، طلعت نازل بيشة غدا، سيأخذها معه، بدلا من انتظار عربة البريد، خَلاّفة المواعيد.

قال خميس:

الخميس أجازة والجمعة، على الله تشم نفَسَك من السفر.

حرص ألا تحوي رسالته الأولى، ما يمكن أن يفتح على أهله، أيَّةَ أبوابٍ للقلق.

سأله سرحان:

معك فلوس؟

نعم.

قُم معي، تعوزك بعض الأغراض.

على يمين الصاعد، يقبع بناء في حجم حجرة كبيرة، قال:

هذا مسجدنا، وهذا - بعد خطوات يسارا وسط المرتفع -، بيت العنود.

أشار يمينا - بعد الهبوط -:

تلك هي الإمارة...، تربطنا بالأمير رابطة طيبة.

أشار يسارا:

هذه هي المدرسة - بناء من دور واحد، يعد الأفضل بالمكان -، وهذا - بناء آخر تعلوه قبة صغيرة خضراء - جامع الجمعة الكبير.

اتخذا طريقا جانبية، الظلامُ ليس كابر، السكك مدقات مُعْوَجَّة، بين مرتفعات مختلفة ومنخفضات، الحجارة مُبعثرة، تتخللها نباتات متناثرة، تجمعات من نخلات قصار، مُسَيَّجَة بأسلاك شائكة، ضوء واهن يقترب، قال:

محطة الراجحي.

رقعة منبسطة، بقايا طلمبات بنزين قديمة، بقع زيتية جافة، محل واطيء، معروش بما يشبه الغاب، ملامح البائع هندية، رحَّبَتْ كلماتُه (المكسرة) بسرحان، مسحَ مُرافقه بنظرات فضولية، سأل:

(كَديد) - جديد -؟

تحركتْ يدُ سرحان، أمام شفتية بإشارة الصمت، سحب حاشيتين إسفنجيتين، في حجم سرير صغير، إحداهما خفيفة، وكيسا تتكور بداخله، بطانية يغلب عليها اللون الأسود، ناوله الهندي - الدّائر في رِكابه - وسادةً وحصيرة.

بكم يا ولد؟

أجاب الهندي:

مائة وستين (أستاس) - أستاذ -.

امتدت يد عبد البديع بمائتي ريال.

قال سرحان:

خَلّي الأربعين الباقية يا ولد، كانت عندي.

طيب (أستاس).

أغراض عديدة، للأكل، والشرب، والنوم، والآلات، والزراعة، و...، و(كاسيت) مُتْرِب مُنْزَو، تتسرب نغماته، مصحوبة بحشرجة غامضة، كأن للغناء هنا قوانينه الغريبة، تقافز البائع نحيلا كعنزة، أوقف النغمات، مفسحا المجال لآذان العشاء، الذي ارتفع في الأجواء.

احتل الهندي بقعة وسط البقالة، متربعا على هيئة لاعبي اليوجا، وانفجر في شلال من البكاء، قال:

(ويش سويت لي أستاس؟).

كل خير.

أبغى أموت أستاس.

اصبر يا ولد ...اصبر.

أخْرَجَ الولدُ بعضَ الريالات، أسرع بدسها في جيب سرحان.

قال سرحان دون أن يردَّه:

خلاص خلاص.

سيطر على المتعاقد صمت الجاهلين، قال سرحان - وسط الطريق -:

الهندي يبغى السفر، عشر سنوات لم ير بلدته، رجاني كثيرا أن أتوسط له لدى كفيله - صديقي - ...

كفيله؟

نعم، بدون موافقته، لا يستطيع المكفول، نقل القدم عن القدم، حتى النوم والأكل، و ... كله بأمر الكفيل.

ونحن؟

نحن على كفالة الإدارة ، لا الأهالي.

- ...

بالبيت، حَطَّتْ كَفُّ سرحان فوق كتفه، قال لخميس - المنشغل ببضع تمرات -:

نبغى سريرا (للباشا)، ...

مال على أذن (الباشا) هامسا:

أعطه - بينك وبينه - خمسين ريالا.

أضاف:

غدا - بعد موافقة طلعت -، نفرش لك غرفه.

يحتفظ خميس عن المتعاقدين السابقين، بإرث من الأسرَّة القديمة، قال:

أحسن سرير وحياتك.

...

رفع تمرة إلى فمه، لم تحدد ذائقته طعمها بدقة، فاجأه سرحان:

أنا والشيخ طلعت من البحيرة، ندرِّس العربي، وخميس صعيدي، ... وأنت؟

أنا عبد البديع الدمياطي، من دمياط، عربي أيضا.

رفع حاجبيه، موسعا حدقتيه، ردد:

بلـد الموبيليـات، والحلويـات يـاعم، والاسـم راكـب علـى المسمى (كمان).ها.ها.هاي.

...

صَحبه خميس في جولة داخلية:

البيت قسمان:

كل قسم غرفتان، تتوسطهما ردهة معروشة.

بالقسم الأمامي:

غرفة طلعت، وأخرى خالية، تفتح نوافذهما أمام البيت، بينهما ردهة المدخل الرئيسي، بها غسالة خضراء (هاف أتوماتيك).

وبالقسم الخلفي:

غرفة لسرحان، وأخرى (للكراكيب)، بينهما ردهة التلفزيون وجلسة الطعام، تطل نوافذها جميعا على مرتفع خلفيّ.

بين القسمين:

باحة مستطيلة، عديمة السقف.

على يسارها - ويسار الداخل -:

جدار يصل بين القسمين، يتوسطه باب إضافي، يفتح على المرتفع، الكائن فوقه المسجد الصغير.

وعلى يمينها - ويمين الداخل -:

حمّام شعبي، تتدلى من سقفه ماسورة مياه معقوفة، لزوم الاستحمام...، ومطبخ متسع، به ثلاجة كبيرة، لا ينقطع صوتها المرتفع، ومنضدة مثبتة - من الجدار للجدار- في المواجهة، فوقها بوتاجاز مُسَطّح حَدّادي، وأوانٍ مختلفة بعضها في حوض الماء، وكراتين يتفسح بينها نمل كبير، وصراصير نحيلة نشيطة، لا تأبه بالبَشَر.

بعد الجولة، اكتفى كل منهما بمتابعة صامتة، لسرحان المتشاغل بأخبار التلفزيون، يعلق - لنفسه - على ما يَرِد بها، من أسماء الأمراء أو المدن، تعليق العارفين.

انفتح باب الغرفة الأمامية اليسرى، قال سرحان:

الشيخ طلعت صحا.

عـودٌ فـارع، كتفـان متـسعان، فوقهمـا يتحـرك رأس (أجلـح) في حجـم رأسين، تحيط عنقه منشفةٌ عريضة، ألقى طرفُ لسانه تحيةً فاترةً.

عبد البديع، المعلم الجديد - هذا سرحان..

أهلا.

قضى وقتا بالحمام، وآخر بالمطبخ، أقبل بصينية متوسطة، قال:

العشاء...

و بادرَ بالأكل، دون أن يدعو أحدا.

همس سرحان - غامزا -:

كُلْ.

يعني...

كُلْ يا عم، ... مالَك؟

...

فَزَّ خميس قائلا:

اسمح لي يا أستاذ، أنا هنا - أشار عكس اتجاه المرتفع -، جاركم (طوَّالي).

...

شـرع الرفيقـان في هَمْسٍ مـبهم، بـدا أن هنـاك مـا يـستدعي انفرادهمـا، التفت سرحان إليه، قائلا:

عليك أنت بالنوم يا (عَبَد)، أنت ضيفي الليلة، و سريري لك.

ألقـى بحاشـيته الجديـدة أرضـا - تاركـا الـسرير لـصاحبه -، أكـوام مـن عظـام تتكسر بداخلـه، يمتلـيء رأسـه بـالطنين، انقضت سـاعات طـوال، دون أن تنجح عينـاه، في القـبض علـى لحظـة النـوم العنيـدة - إنهـا ليلتـه الأولى بالـديرة -، تتعجب أذنـاه مـن ضـحكاتهما المختلطـه بـالكلمـات، كيـف أمكنهمـا اسـتدعاء مَلَكَ الضحك، إلى تلك الديار؟

٥

ملأ أذان الفجر أذنيه، سِنَةٌ من برد تتسلل إلى أطرافه المتوضّئة، أقام طلعت - المؤذن - الصلاة، مرتديا سَمْتَ الخشوع، خلف سرحان - الإمام - انتظم صفٌّ رباعيّ؛ إلى جواره هو و طلعت وخميس، اصطفَّ شخص نحيل، بوجه طفوليّ، لا تسكن له حركة أثناء الصلاة.

قال خميس - بعد الصلاة -:

هذا عيَّاض، ولد العنود الأصغر.

خلف الباب، صادَف حقيبة صغيرة، قال سرحان:

طلعت نازل بيشة حالا، أخذ رسالتك للأهل، وصّيته يشتري لك، مظاريف، وطوابع، ودفتر تحضير، و... ، و''الحساب يجمع''،

ادخل نم لك ساعة، (بعدين) أحَصِّلَك.

...

أيقظتهما دقات خميس، لم تكن الشمس قد توسطت السماء بعد، على الإفطار عبَر عيَّاض الباب محييا، بدأ سرحان معه حوارا جديدا، خَتَمَهُ بقوله: -

قُلْ:

تَمّ - أي موافق -

رد عيَّاض معتذرا:

والله (مِجَبِّل) على ديرة الأخوال.

رسم سرحان، خطوط الأسف على جبينه، مخاطبا نفسه:

كنا نبغاه معنا على الغداء، ولكن ...،

واصَلَ - وهو يهز كتفيه -:

على فكرة، ديرة أخواله هذه، قريبة من العقيق، بلدة بخيت مدير المدرسة.

قال عبد البديع بآلية:

أهْ... أهْلا وسهلا.

قال خميس:

اجْمَدْ...

كُلهم في الأوّل كانوا (زَيّك كِده)، ... مرتبكين.

أنهى عياض آخر رشفة للشاي، ربّتتْ كفُّه فوهةَ الكأس الفارغة، مرددا كلمة (بَس) - إشارة الاكتفاء -، أجرى طرف غُترته تحت أنفه، قال:

- مَرْحَبا ألف، زانت الديرة يا ...

- عبد البديع.

- متزوج ولاّ (عزوبي)؟

- متزوج.

- مُبارك مُبارك.

- ...

قال سرحان:

ماء الغسيل على وشك الفناء.

التفت عياض إلى خميس آمرا:

شَغّل الماكينة وتعال.

أحدثت رُكبتا خميس (طرقعة) عند الوقوف، هَمَس لسرحان:

الجماعة يبغونك هناك - أومأت رأسه نحو المرتفع -.

كشفت شفتا سرحان عن نابيه، ردَّدَ:

حاضر حاضر.

عدَّلت يدا عيَّاض، من العقال فوق رأسه، وهو يقول:

اسمحوا لي يا رجال.

ردد سرحان قول البدو:

مسموح، الله يستر عليك.

...

وصل للأسماع صوت الماكينة، نهض سرحان مُدخلا الصينية إلى المطبخ، صاح مشيرا إلى السلم الحديدي، النائم على الجدار:

اطلع السطح، وحُط الخرطوم في الخزان...

- أي خرطوم؟

- سأناولك إياه حالا.

وقبل أن يهم بالخروج، ارتجل حديثا قلقا، حول ملوحة ماء الغسيل الزائدة،

هـذه الفـترة، مـع أن الماكينـة ترفعـه، مـن بئـر الـوادي الأحلـى، مـن بئـر المزرعـة، مترَحِّماً على أيام السَّيْل، التي تجعله كماء الشرب، الذي يشترونه من بيشة.

- سأل كالمغيب:

وادي ومزرعة وسيل و...؟

- (بعدين) تعرف، اطلع اطلع.

...

الخزان على هيئة صاروخ قصير، فوق ظهر الحمام ينام، طبقة أسمنتية تغطي الألواح الخشبية للسطح.

من فوقه، التقطت عيناه، أوّلَ منظرٍ نهاريٍّ للمكان: -

عن يمينه؛ لم يأت المشهد بجديد:

المسجد على أول المرتفع، يليه بيت العنود، وفي المنخفض من بعده، تلوح بعض الأسطح، منها سطحا الإمارة والجامع الكبير.

وعن يساره:

يلتصق مسكن خميس بهم، تليه طريق ملتوية، تحازيها مزارع من نخيل قصير، قبل متسع أرضي كنهرٍ جفَّ ماؤه، عُرف فيما بعد بمجرى الوادي.

وفي مواجهته مباشرة:

منخفض ضيق، تعلوه حجرةٌ بتعريشة أمامية، بعدها وعلى قُرابة خمسمائة متر، يتربع بيت أكبر، فوق هضبة عريضة.

...

ألقى سرحان إلى السطح، بطرف خرطوم أزرق طويل، أسرع إلى حفرة المَحْبَس، في حجم دلو كبير، بجوار المسجد، لحظات وانتفخ الخرطوم بالماء، صاح - وهو في طريقه إلى بيت المرتفع -:

لو فاض الخزان ازعق علي خميس.

توقف لحظة أمام المدخل، التقطت عينا الواقف فوق السطح امرأتين، إحداهما سافرة ترتدي السواد، تحتفظ ببقايا جمال قديم، ... والأخرى منتقبة، يلتف قدها الممدود بثوب أبيض، تزينه ورود ربيعية حمراء، تتحرك مع خطواتها المُختالة.

اندفعَتْ الأولى، في نداء محموم على خميس، لم يتوقف - النداء - إلا بعد أن طلا فجأة، كعفريت يخرج من أحشاء البحر، سحبت الأخرى يدا سرحان - الطَّيِّعَة -، حيث ضمهما جوف البيت.

زعق عبد البديع معلنا فيض الخزان.

مال خميس - المتوجه إلى المرآة - على حفرة المَحْبَس، صاح:

ارم الخرطوم عند الباب، و انزل.

...

تمتلىء باحة وسط البيت المكشوفة ، بخليطٌ من رمل وزلط - يُسمَّى بَطْحَة - ، بجوار الباب الإضافي ، المُطل على ربوة المسجد ، ينام عود من حديد ، ثَبَّتَ الأسمنتُ بطرفيه ، عُلبتيّ مسلى كبيرتين ، قال خميس - بالأمس -:

أبو دماغين غاوي رفع أثقال.

لاتزال صراصير نشيطة - بالمطبخ - تدور ، حول كرتونة للقمامة ، وخنافس بطيئة ، ونمل.

اتكأتْ مؤخرتُه ، على إحدى درجات السلم الحديدي ، ارتفع بصره إلى السماء ، هالَهُ بُعْدُها عن الأرض ، واتساعها ، هاجمه شعور بالضآلة ، انتفضت يده منزعجة ، لتبعد نملة في حجم نحلة ، ذات ملمس ناعم مقزز ، أرسل صدره تنهيدة مَلُولَة ، غرس وجهه في كفيه...

فاجأه صوت الباب - المفتوح بعنف - ، حلَّتْ الجدِّيَّةُ على قسمات سرحان - القادم - ، محل الابتسامة المبهمة ، ألقى لسانه - على الفور - برسالة حاسمة :

لو ناوي تكمل هنا ، فأنت أعمى ، أبكم ، أصم.

اهتزت رأسه - كالمغيَّب - بالموافقة ، رغم المباغتة.

قال الأول - بعدما عاودته الابتسامة -:

لابُد أتحفَك بأكلَة تحلم بها.

سحبَتْ يدُه من الثلاجة كيسا مجمدا ، تمتم:

لحم ضاني وحياتك ، سأعمل لك أحسن (مقلقل) - لحم بالصلصة والتوابل -.

...

سارع عبد البديع بالخروج ، مستجيبا للنداء ، قال خميس:

تعال (أفرّجك) على المزرعة.

فتح بابا في سياجها الشائك ...

بين النخلات تتنوع فوهات الجحور ، كتنوع ساكنيها - ثعابين ، فئران ، عقارب ، ... -.

لمح خميس عَرَقَ الخوف ، فوق جبين صاحبه ، لامَسَ رأسه مهدئا :

''لا يصيبك إلا نصيبك''.

تتوسط كل نخلة حوضا صغيرا، يتصل بخرطوم ثابت، ينتهي إلى الماكينة، المثبتة على قلب بئر عملاقة، يصل عمقها - ربما - إلى خمسين مترا، و قُطرها إلى عشرة أمتار، لها فوهة حجرية مُعالَجة بالأسمنت، هبط نظَرُه إلى قاعها، اصطدم بلمعة الماء البعيدة، ارتد سريعا قبل أن يستولي عليه الدوار.

نبات (حبق البحر) غزير، يتوسطه حوضان من جرجير - زرْعُ يد -، تختلط رائحتهما معا، مُنْتِجَةً عطرا غريبا على الأنوف.

حول شاطئيّ الوادي الموصوم بالجفاف، وعلى مدى الرؤية، تتوالى المزارع.

قال خميس:

بُكرة يأتينا المطر، ويسيل الوادي.

- معقول؟

- والله...، ويصير مثل النيل.

أعادته سيرة النيل، إلى مشاعر وطقوس أثيرة.

...

في الطريق إلى المسكن، جمع خميس عُلباً أربع فارغة، فتح الغرفة الأمامية يمينا، تغطي أرضها طبقة أسمنتية، متدرجة الميل، تنتهي إلى فتحة كالجحر، أسفل الجدار الملاصق للباب، فض خميس نسيج العنكبوت المنتشر، أعاد حيثيات انتفاخ الخرطوم بالماء، امتلأت أرض الغرفة، اندفع الشلال عبر الفتحة، حاملا إلى الخارج، كل ما أمكن حمله، تَرْقُبُ المشهدَ - من موقعها بالسقف -، حبّاتٌ منزعجة من بُرص جَبَليّ.

ملأ خميس العلب الأربع بالماء، حط كل قائمة للسرير في واحدة، نظر إلى الفضول في ملامح صاحبه، قال:

- الماء يمنع العقارب من صعود السرير.

- عقارب...، وعلى السرير؟!

...

سأل سرحان - بعد الغداء -:

ما رأيك في (المقلقل) يا عُبَد؟، أضاف - دون انتظارٍ لرد -:

رُح جَرِّب سريرك في النوم أحسن.

أسفل السرير، دفع بالحقيبة، لم تتخلص بعد من كل غبار الطريق، مدَّ ظهره، أخذته - دون عمد - غفوة قلقة، صور عديدة تتراءى له، وقبضة في القلب تطارده.

على العشاء، وَرَدَ ذكْر الكهرباء الأهلية - التي بدا وجودها غريبا -، لا تنقطع إلا لساعات أربع يوميا، من وقت الدراسة.

ساد سكون مقبض، الظلام باتساع السماء، تلوح من بعيد نجمات خَجْلَى، قطَعَ سرحان السكون بسؤال مفاجيء:

ألا ترغب في تمشية؟

وللتمشية ليلا أسلحه - حذاء وعصا وكشاف -: ذيول العقارب اللادغة طويلة، في الطريق إلى البقالة الثانية للديرة، قضتْ العصا على بعض الكائنات، ردّ منصور - البقال - ثمن البارد - احتفاء بالزبون الجديد -، سلَكَا في العودة طريقا أخرى، بدت أكثر صمتا ووحشة من سابقتها.

انفردت به الجدران، انتظارا لبذوغ فجر الغد - الجمعة -، تُتابع عيناه مُرهقةً، حركة (البرص) على ألواح السقف، ظهورها لأسفل، وأطرافها لأعلى، ثابتة، كأنها تتحدى قانون الجاذبية.

...

عصرا، توقفت سيارة (جيب) أمام الباب المفتوح، غادرها قفزا شابان، أحدهما أسمر طويل، له هندامٌ متّسق، والأخر أقصر قليلا (خمريّ) البشرة، طاقيته مُعوجّة، وغُتْرته مطروحة على كتفه.

قَزَّتْ قوائم سرحان، ردَّدَ التحيةَ بحماسٍ، قال وهو يحتضن الأول:

الأخ بخيت، المدير.

انتقل إلى الأخر:

وهذا ماجد السبيعي، زميل.

جرت سريعا نوبة من التصافح، قال سرحان:

عبد البديع، المتعاقد الجديد.

قال المدير:

- مرحبا أخي؟

- مرحبا بك.

- الله يوفقك معنا.

...

فرغ الضيفان من كأسي الشاي - الجاهز -، قال ماجد بلهجة بين الجد والهزل:

- كيف مصر وبنات مصر؟

- بنات؟

قال بخيت لماجد - وهما يقفان -:

الرجل باقي جديد يا ولد...،

اسمحوا لنا يا إخوان.

تناثرت عبارات تهكميّة، مع امتداد غير جاد للأيدي، بين ماجد وسرحان، الذي قال أخيرا - محتفظا بسمت الظُرف -:

مسموح أيها المدير العزيز، الله يستر عليك.

...

عاد البيت ليفرغ عليهما، اتخذت كلمات سرحان - هذه المرة - منحى محددا:

إياك و الأسئلة "...لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تسؤكم ..." (*)

الحرص نصف النجاة.

احذر الجميع...، المعلمون خليط من الوطنيين - أهل البلد -، والمتعاقدين المصريين، و فلسطيني يتيم - يقيم معنا - اسمه مروان، إياك والتورط مع الطلاب، بالقول أو الفعل، فينتهي عقدك في لحظة.

ترددت كلمات المتلقي بين أسنانه:

- حتى المعار؟

- كلنا أوراق جافة، في يوم عاصف.

وصل إلى أسماعهما صوت محرك قادم، قال:

الشيخ طلعت وصل مع مروان.

سيارة نصف نقل - كتلك التي جاءت به أول مرة -، سارَعَ سرحان بفتح ضلفتي الباب، يعلو الغبار رأسيهما، على رقبة مروان - المتين - وأذنيه، ينساب الشعر الأسود المغبر، يكتظ وجهه بالحُمرة، ارتفعت يده بالتحية، وزّعَ لعناته بين الديرة، وبين سعد مشعل - موزع المعلمين بالإدارة -.

ساهم في نقل كراتين الأغراض، انضم خميس للجميع، لإنزال البرميل الأسود الضخم لماء الشرب.

تبادل القادمان الاستحمام، انشغل خميس بالشاي، احتوى طلعت سرحان بين ذراعيه، مكررا مع القبلات:

(*) من الآية ١٠١/ سورة المائدة.

وحشتني يا رجل.

امتدت يده إلى الدفتر فوق التلفزيون، كتب بالصفحة الأخيرة. وهو يقرأ .:

مائة ريال على عبد البديع لطلعت؛ دفتر تحضير ومظاريف بطوابع، قال مروان. فيما بعد .:

إنها لم تتعدَّ الخمسين ريالا.

قال خميس:

أعرفك بعبد الـ...

قاطعه مروان:

طلعت خبَّرني في الطريق...، أشار إلى (ترنج) عبد البديع الأصفر مُتهكما:

بالزمة هذا لون رجالي ولاّ ...؟

أربَكَتْ الملحوظة لسان صاحب الترنج، قال بتردد:

طبعا ... رجـ ..رجالـ...

٦

بدا الطلاب في طابور الصباح - بملبسهم الأبيض الموحد -، كمساحة من الثلج، تنتظم الغُتَر فوق رءوسهم، كخيام متناهية الصغر، بخطوطها الحمراء المتقاطعة فوق البياض، يتناثر المعلمون بين الصفوف، استطاع على محدودية خبرته -، أن يميز المصري من الوطني.

فوق منصة أسمنتية تشبه المسرح، يقف شخص تتناسب ضخامته مع طوله الفارع، يحتويه ثوب رمادي شبه متسخ، تغطي رأسه الكبير غُتْرة، يدير صوته الجهوري الطابور بلهجة بدوية، تلبّسَهُ خشوع غريب، عند ترديد السلام الملكي.

همس سرحان - القريب - :

الأستاذ نصَّار جمعة، من بحري مثلنا.

طار الأولاد إلى حجرات الفصول.

بالحجرة الأولى يسارا - حجرة المعلمين - اختلط الجميع، تشابهت كلمات الوطنيين المُرَحِّبَةِ به، تردد اسمه عدة مرات، امتدت يد أحد المتعاقدين مصافحةً، قال:

أخوك كامل زيد من قِبْلِي - متوسط البدن يميل إلى السُمْرة -، قدَّم له بعض الحضور:

خليفة سويسي (مدرس رياضيات).

حربي (أبو الإنجليزي) من القاهرة.

أما هذا - الوحيد الملتزم بالقميص والبنطلون - فعصام الأسيوطي، (بتاع) الرسم، ... ها ها ها، ... بعد إذنك عندي حصة.

احتل طلعت - صامتا - مكانا خلف مكتب صغير، مقطب الجبين، متحرك النظرات.

الانشغال باد على الجميع، لحظات وانفردت الحجرة به، عاجله أحد الشيبان زاعقا - وهو يشير إلى الحجرة المقابلة -:

المدير يبغاك.

بادله المدير عبارات التحية، مدَّ دُرْج الخزينة - القريبة -، ببعض الأوراق المالية، قال:

- خذ ما يكفيك.

- معي والله.

- والله لابد تأخذ.

- أصل...

- هذه سُلفة، تردها مع أول راتب.

- تناول ورقة - بخمسمائة -، وانحنت رأسه مطأطأة.

- شد عُودك يا رجل، أخوك - أشار إلى نفسه - سدَّاد، إن شاء الله.

- أشكرك.

- على (أيش)؟

...

شاركه نصار حجرة المعلمين لدقائق، قال - على طريقة البيانات العسكرية -:

أسرتي معي، ولداي - أيمن وتامر - هنا بالمدرسة، بيتي مفتوح لك في أي وقت...، ودسَّ في جيبه ثلاثمائة ريال.

أوشكت رياح الاطمئنان، أن تهب على قلب عبد البديع، أين هذان الرجلان، من حالات صادفها، في يومه الأول بالمدينة الأم.

...

على الغداء ساد الصمت، انسحب الجميع إلى الغرف كالمُخدرين، لمروان - بغرفة طلعت - فراشٌ أرضيّ، يستخدمه في الليالي التي يقضيها بينهم.

حول الشاي - الخفيف -، جمعتهم جلسة عصرية، قال سرحان:

أسرة مروان في مدينة بيشة، يقضي معنا السبت والأحد، ينزل بعد دراسة الاثنين، ليعود فجر الثلاثاء...، و بعد دراسة الأربعاء، ليعود مساء الجمعة، أوصباح السبت، وهكذا...، يحمل معظم مقاضينا - بفلوسنا طبعا -، و إلى المدينة ننزل معه، بالذات طلعت (النزيه)، المشارك في شقه بالإيجار هناك، ينزل عليها.

...

كالَ مروان السبَّ لسعد مشعل، الذي نقله من مركز المحافظة، إلى

هذه (المخروبة) ـ على قوله ـ، جمع معه ـ في السَّبِّ ـ عبيد العنزي الصراف؛ حيث تجري أقدامهما إلى الديرة، دون مناسبة مُلِحَّة، متلهفين على ضيافة العنود، وابنتيها ـ زهرة المطلقة، وهند بنت البنوت ـ.

فشلت محاولات سرحان لإسكاته، أوإظهار الكلام على أنه تخريف، أو مزاح ثقيل.

نَهَرَه مروان متسائلا:

أليس هذا (تعريسا) علنيا؟

ألم يكن سعد الكلب هذا، سببا في تأجيربيت العنود ـ المدرسة ـ للحكومة، بخمسين ألف سنويا؟ وأيْمَان المسلمين البيت نفسه، لا يساوي هذا المبلغ.

مسحتْ نظراتُ سرحان المكان، صرخ:

الله يخرب بيتك، خلينا في حالنا يا أخي.

طَرَقَ مروان رُكْبَةَ عبد البديع قائلا:

لازم تعرف (المستخبي)، لازم.

تابع طلعت ـ الصامت ـ صبَّ الشاي لنفسه، فوق جبهته تسكن خطوط أفقية عديدة، فيما ابتعدتْ عينا عبد البديع عن المواجهة، ينتابُه ـ الآن ـ خليط غريب من المشاعر، فالمسألة لن تتوقف ـ على ما يبدو ـ، عند كَوْنهم يعملون، بمكانٍ ناءٍ في قلب البر.

بعد صلاة المغرب، عرَض خميس عليه الصُّحْبَةَ إلى البقالة، نظر إلى سرحان ـ مستئذنا ـ فلم تمانع إشارتُه، قال:

هات لنا باردا على حساب الجماعة...، وأنت يا خميس، إياك من الخوض في الكلامِ الناقص.

أكملا صعود المرتفع، اجتازا الطريق الواقعة خلف بيت العنود، قال خميس:

عشر سنوات خدمتي هنا، عشرات المعلمين مرُّوا عليَّ، ما صادفت كهذين أبدا.

ـ ...

ـ ناب سرحان(زارج)؛ حاطط المدير في جيبه، و(واكل) دماغ العنود، و زهرة بنت العفاريت.

ـ يا أخي باين عليه طيِّب.

- طيّب؟!... الله يصلح حالك، ...

أما طلعت، فملعون في كل كتاب.

- ملعون؟

- مضحّك علينا البَر.

- يعني؟

- يعني عامل علاقة (وسخة)، مع حُرمة واحد عِجْل.

- علاقة؟،... يقولون إن العلاقة هنا معناها الموت.

- اسكت اسكت، بلا موت بلا نيلة، ... على العموم، أنا لولا حاسس إنك مسكين وابن ناس، كنت خلّيتك على عَماك.

- جزاك الله كل خير.

- وإيَّاك.

في (تِرِنْجَات) مُقْبضة، مرّقَ بضعةُ رجال، بدتْ خطواتُهم ثقيلة، محملة بالانكسار، قال خميس:

إنهم محارم.

لم تسعفه حالته المزاجية، ليسأل عن معنى الكلمة.

قال خميس - دون سؤال -:

المحارم هم أزواج المعلمات المصريات، بمدرسة البنات.

شرائط كثيرة متنوعة، دخلت رأسه في زمن قياسي، أيُعْقَل كل هذا؟

التقيا بالبقالة زميلين، شربا باردا على حساب خليفة - المصمم -، كور عصام قبضة يده - على هيئة هاتفي المظاهرات - قائلا:

(شوف شغلك كويس)، واضرب الفحل بـ (الصَّرمة).

قال خليفة:

كان الله في العون، ساكن مع أولاد الـ...

قاطعه خميس:

أنا حكيت له، ليكون على نور من الأول، ... أضاف بنبرة متحسرة:

لو كان عندكم مكان!

يسكن عصام وخليفة وبقية المتعاقدين، ذلك البيت فوق الهضبة المواجهه، على بعد خمسمائة متر، والذي ليس ضمن أملاك العنود، إذ يملكه عوض راجح - العامل بالمدرسة -، وهو شايب كثير العزائم، اشتهر عن معزوميه - المعلمين غالبا - أنهم يأكلون، ثم ينهمكون في ذكْر مساوئ طعامه، حتى يحين

موعد العزومة التالية.

بدت طريق العودة أكثر إظلاما، أشار خميس إلى مبنى مجاور للإمارة قال: ـ

هذا الجامع الكبير، وخطيبُه،... سكتَ لحظة ـ، سأل:

مَن تظن؟

ودون أن ينتظر جوابا، ضرب كفيه ببعضهما مُكملا:

نصار جمعة، ... تَصَوَّر!

...

على العشاء، أصدرت حنجرة طلعت (نحنحة) التحفز، قال:

أنا أبغاك في كلمتين.

انطلقت كلماته، دون تمهيد:

- صل على النبي يا (سي) عبده.

- عليه الصلاة والسلام.

- أنا وأبو السَّرْح - يعني سرحان -، أجَّرْنا هذا البيت لراحتنا، ولا نحب أن يشاركنا فيه مخلوق،... ولعلْمَك، أنا مشارك في شقة بالمحافظة، حتى لا أنزل عالة على أحد، وطبعا أكيد خبَّرَوك.

- خبروني.

- قُصْر الكلام:

أنت اليوم أخذت وقت الضيافة، ولو ناوي تشاركنا، لابد تشارك في الأجهزة.

تداخَل سرحان:

- لا تزعل من طلعت، هو صريح (حَبتين)، إنما قلبه طيب.

- عادي.

أكمل طلعت:

يعني عندنا ثلاجة كبيرة، (زي) ما أنت شايف - أشار ناحية المطبخ -، وغسالة (هاف أتوماتيك)، وتلفزيون أمامك (أهُهْ)، طبعا (مستعملين)،... ثمنهم ثلاثة آلاف، عليك منهم ألف،... فهمت؟

- فهمت.

علّق مروان - المتعض -:

(ياه) ألف؟

صمت لحظة، قبل أن يضيف:

لا يدفعها إذن، إلا بعد قبض مستحقاته.

أشار أحدهما إلى دفتر فوق التلفزيون، قال الآخر:

لكل واحد صفحة، يسجل بها ما يشتري، وتتم التصفية آخر كل شهر، ... الإيجار ستمائة ريال، الكهرباء مائة وخمسين، تتم القسمة على ثلاثة، مروان خارج الحسبة طبعا؛ سيارته تحمل المقاضي، وكذلك مَن يرغب في النزول، أما ماء الغسيل - فالحمد لله - ، على أصحاب السكن، ... ماشي يا عم؟

- ماشي.

- نقرأ الفاتحة...

لمح ظل خميس في مدخل الباب الكبير، همس:

(هُس) سكوت يا جماعة.

ألقى خميس المساء، توجه نحو المطبخ، حاملا كيسا لا يظهر ما بداخله، قال:

بعد إذن الحبايب، أحُطّ اللحمة (دي) في الفريزر.

قال سرحان:

وماله، (بس) اتحفنا بشايك المعتبر يا وَحْش.

هب طلعت متوجها نحو غرفته، لحظات وخرج في رِكَاب عطْرِه، مستبدلا (الترنج) الأزرق الخفيف، بثوب سُكْري ماركة (الدَّفة).

شاغَلَهُ مروان:

بدري يا سيدي...، تعال اشرب الشاي.

أسرعَتْ به الخطواتُ إلى الخارج، دون أدنى اهتمام.

رمت عينا خميس نظرة ماكرة، خرجَتْ حروفه بعفوية:

أرزاااق.

صاح سرحان محذرا:

خميييس.

حاولتْ كلماتُ مروان التَّدَاخُل، حالتْ نبرةُ سرحان الحادة دون ذلك، قال:

لو سمحتم، غيروا الموضوع.

رسم مروان بسمة ساخرة، قال - وهو يشير إلى (ترنج) عبد البديع -:

ما رأيك في اللون الأصفر يا (أبو السَّرْح).

رد - بعد أن عاوده الهدوء - :

جميييل.

قال خميس:

لا تتمسخر بالرجل يا مروان.

علا الحنق وجه عبد البديع، - إنها المرة الثانية في هذا الشأن -، اندفعت كلماته محذرة:

اتمسخر على أهلك، وإياك تت ...

قاطعه سرحان:

يمزح معك يا رجل.

صاح:

مزاح سخيف، ...

ثم انتفض مبتعدا، بعد أن فشلت يد خميس، في الإمساك به.

٧

ها هو أسبوعه الأول يمر، دون أن تطأ قدمُه فصلا واحدا، بحجرة المعلمين يتغير عليه الزملاء، غارقين - غالبا - وسط أمواج، من كراسات تحتاج إلى التصحيح.

خروجٌ، دخولٌ، همسٌ، نظراتٌ،...الكل يعيش - مأخوذا - على حافة التوتر، وربما الفزع.

تساوره - الآن - شكوك جَمَّة، ماذا يُضْمَرُ له؟ وأين تحذيرات سرحان من تلك الحال؟

لمعظم القدامى مكاتب صغيرة بالحجرة، سرحان - وحده - له مكتب كبير بحجرة منفصلة، منوطٌ هو ببريد المدرسية، وبالمكاتبات، ليس على بخيت إلا التوقيع - هذا كلام الزملاء -، يشاركه الحجرةَ الأستاذ مشعان - وكيل المدرسة -: دقيق الملامح، متناهي النحول، كثير التأفف، تبدو لحيته الكثيفة طويلة، مقارنة بقزميّته اللافتة، لم تَرَهُ العين متلبسا بأي عمل يُذكر.

...

نَظْمَتْ الحالُ نفسها:

صلاة الفجر، غفوة قصيرة، إفطار، إسراع إلى الدوام، ينتظر كلٌّ من رفيقيه الآخر، يطلقان الريح لِخَطْوِهما، دون نداء أوانتظار، كذلك الأمر عند الانصراف، حوارهما هامس، لا تلقي ضحكاتهما بالا، لذلك السائر خلفهما، كنبات (ذيل القط) المهمَل، يعيد هو التفتيش في أيامه معهما، ، فلا يعثر على مبررات مقنعة.

بالسكن، ينهمك طلعت في الطْهو - يقول إنه لعبته -، يربض سرحان متكئا على مرفقيه، كأسد يكمّن للفريسة، بعد الغداء يخلدان إلى تقييلة حتمية، وينفرد هو (بجلي) الأواني -: إنه العمل الوحيد، الذي يمكن أن يمر دون أخطاء -، يخص نفسه بكوب كبير - موزون - من الشاي، يستعيد به عادةً تنازل عنها قسرا منذ القدوم، ... إنها فرصة للهروب، من الكئوس الصغيرة، و من الشاي، الذي هو أقرب إلى الماء - مجرد أفكار يبدو ظاهرها طريفا -، يأخذه

القصد إلى خلوةٍ بكتاب، من تلك التي استقدمها معه، يتبه على نداء طلعت الرهيب للعصر، ليمارس رفيقه حق الإمامة على الجميع،...

فوق الحصير يفترشان الباحة الكبيرة، يلتصق كلاهما بالآخر، ككلب وكلبته، يكتفي هو - حرجا -، بكأس من الشاي (المائي)، قبل أن يبادر بالانسحاب.

يفاجؤه ازدياد ضيق الغرفة، تغادرها أقدامه، تجتاز الباب الخارجي متثاقلة، يقع نظَرُهُ على المزارع الممدودة، وعلى البيت الكبير هناك، حيث يقطن الآخرون.

يهجم الغروب، تهاجم قلبَه غُصةٌ مُقْبِضة، تشرع الهوام المتنوعة في هجومها المعتاد، تحيط آلاف - طائرة - منها بكل مصدر للضوء، و تتزرع الأرض بآلاف أخري من تلك الأرضية، أكثرها جعارين ملونة، وعقارب سوداء فاحمة و...

يرد سرحان باب غرفته، موهما بالانشغال في أعمال سرية، ينصرف طلعت متأنقا إلى مقصده الليلي، وينفرد هو - مجبرا -، بمتابعة أخبار تلفزيونية وبرامج، لا تمت لحاجته بصلة، تدور - عادة - حول أُسْرَةٍ واحدةٍ بيدها مفاتيح البلاد.

يشاركه خميس المتابعة وقتا، قبل أن ينخرط - هامسا - في الحَكْي، عن سِيَرٍ سابقة لمتعاقدين سابقين، وقعوا ضحايا ألاعيبٍ خسيسة لمتعاقدين آخرين،... يُنَبِّه خاتماً الهمسَ:

خلّي بالك... ، واحد قرصته بالقبر، والثاني معكوك في العَكّة إيَّاها، يبلع ويشرب و... كالبهيم.

- ...

❖❖❖

في اليوم العشرين، أطلعه المدير على جدوله المقترح - خليط من حصص العربي والدين -، كما ناوله رسالة له من مصر، قابلها الرفيقان بلا مبالاة فجة، شغلته الرسالة عن مناقشة تفاصيل الجدول، طار مع كل قراءة جديدة لها، هواء الزوجة والأولاد بين السطور.

...

بالفصول، اصطدم بلهجة الطلاب البدوية، عظام وجوههم نافرة، جسومهم نحيلة، تكسو جلودهم طبقة خشنة سميكة، يدعون المعلمين

بأسمائهم المجردة، أما أسماؤهم هم فعلى هيئة:

عقاب، بُراز، كمَيِّخ، جربوع، ذيب، جميح، سناح، ...

يحتفظون جميعا بلقب وحيد، إلا في النادر.

...

قال كامل زيد:

الشباب (عازمينك) على عشاء الليلة، الاعتذار ممنوع.

أمام الباب المفتوح - مَغْرِباً -، توقفت سيارة صغيرة، ألقى كامل و عصام السلام، جاء رد سرحان فاترا، استأذناه في اصطحاب (المعزوم).

السيارة بلا علامات، تضرب أجزاؤها بعضها البعض، يَحدُث ضجيجٌ غريب، أطلق كامل ضحكة ساخرة، أخرج لعصام لسانه، صائحا:

سوق (البولمن) يا ولد سوق.

أعاد الجميع الضحكة، مع ترديد كلمة (البولمن).

قال:

(حمارتك العرجاء...) ياعم عبده، كلنا شركاء في الحمارة هذه، الواحد بمائة وخمسين ريال، يعني كلها بستمائة.

(بَسّ؟)

نعم (بَس)، (مش) عاجبك؟

ضاحكا:

عاجبني يا عم.

يقلد فم عصام صوت آلة التنبيه، تتخبط العجلات في حفر صغيرة وأحجار، وسط المطلع أصيب المحرك بسكتة قلبية، أسرعت السيارة - وسَط القهقهات -، بالتقهقر إلى السَّفح، عبثتْ أصابع عصام بالمحرك حتى دار، وأعادوا استئناف الصعود.

إنها المرة الأولى، التي أمكن للضحك فيها، أن يدخل عليه.

...

(كوكتيل) من شباشب بلاستيك قديمة، عباءات رخيصة، ترنجات مشوهة، لم تفارق السيجارة يد حربي - القاهري - إلا وقت العشاء، كثير التفل، والتمخط، يعاني من انتفاخة بطيخية لبطنه، وصعوبة في التنفس من أنفه، لا يفوِّتُ لسانُه فرصة، ليشتم كلا من طلعت وسرحان، خاطَبَ كاملا في خَنَف ظاهر:

فاكر وشاية سرحان بخليفة عند بخيت؟

أكيد.

التفت حربي نحو الضيف قائلا:

ادَّعى ـ بالضلال ـ سَبَّ خليفة، لبخيت ورفاقه، ولولا المواجهة لتاهت الحقيقة.

قال كامل:

يعني (الدَّبُّوس) نصار (اللي) سهل؟

رد عصام:

ولد ملعون... ـ نظر إلى الضيف ظانا أنه لا يعرف ـ:

تَخَيَّلْ، عارف بعلاقة حرمته بزميل، وساكت!

أضاف كامل:

ليته ـ فقط ـ يمنعها عن دار العنود، ويمنع الوطنيين عن داره.

قال عبد البديع ـ بعد تردد ـ:

والله يا جماعة نصار هذا، فعلَ معي كذا وكذا ـ دسّه للثلاثمائة ريال في جيبه ـ.

رد خليفة مقهقها:

واثق من رد المبلغ، والجميل محسوب محسوب.

صاح حربي ـ متأرجح الرأس ـ:

لَعِّيب بجَد.

انتهى العشاء، بعد القضاء على قِطَع الباذنجان المملحة، وفراغ طبق الفول، قليل الحبات كثير الماء.

انتفض خليفة مستقبلا القِبلة وهو يقول:

خلُّونا نصلي العشاء، ثم أقام الصلاة.

أسرع مروان ليجدد وضوءه.

قرأ كامل في الركعة الجاهرة الأولى، نصف الآية الأخيرة من سورة البقرة:

" لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا "

انشغلتْ العقول ـ أثناء القراءة ـ بالتدبر، في مسألة التكليف الوارد بالآية، وقدرة النفس على أدائها، رغم أنها على قدر الوُسْع.

أكمل كامل الآية بالركعة الثانية:

'' ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين''

كرر خليفة - بعد التسليم - قوله تعالى:

'' ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ''

ردد البعض:

آمين.

قال عصام مشاغبا:

في كل مرة، تصلي بهذه الآية الطويلة؟... طيّب غيّر من أجل الضيف.

قال مروان:

على فكرة، القراءة ليست بالطول، سورة الإخلاص مثلا أقصر، لكنها تساوي ثلث القرآن.

اكتفى كامل - الذي يختم الصلاة - بالتمتمة، بينما لفتَ صوتُ الولاّعة النظرَ، وهي تشعل لحربي سيجارته.

...

في تلك الليلة، ازداد رأسه يقينا، بأن الأمر ليس سجالا، وأن التمسك بحياديته، التي جاء بها من ريف مصر، لن يكون سهلا، وكأنَّ الانحياز لأحد ضد أحد أمر حتمي.

لا يستطيع بالطبع ، إنكار تكوينه لأفكار تقريبية، عن معظم المحيطين به، جازما أن هذا الخليط من البشر، لابد أن يتورط - بشكل أو بآخر ، في نمط من الحياة، يختلط فيه الإنساني باللاإنسانيّ.

سأله سرحان:

- ماذا قال الشباب عنا؟

- مجرد عزومة على العشاء.

فهم السائل - المُحنك ، خشية المسئول من الخوض في قضايا، لم يكن موجودا عندما بدأت.

...

تأتي عودة طلعت، بالنصف الأخير من الليل، يسارع بإطفاء بدنه بدُشٍ بارد.

سأل عبد البديع - فيما يُعتبر أول سابقة تجرُّؤ :

من أين يأتي كل ليلة؟

أجاب سرحان - مُحمّرا عينيه -:

يعطي درسا لولدين، والدرس ممنوع كما تعرف، والليل ستّار.

تظاهر السائل بجهل الحقيقة، متذكرا - مع حُمرة العينين -، ضرورة وأد أسئلة كثيرة بداخله، إذا أراد (أكْل عيش) هنا.

بإحدى الفُسَح، لمح طالبين بقميصين مشجرين، يتقاسمان (الساندوتشات) مع طلعت، في انسجام تام.

أشار عصام - المتابع - :

هذا أيمن نصار - الطويل -، وأخوه تامر - القصير المتين -.

أكمل:

أنا في انتظارك على الشاي بعد المغرب.

- ربنا يسهل.

...

في العصر، أقبل على عَجَل، مشعان - الوكيل - ومِسْفِر - معلم الألعاب -، مُحَمَّلَين بدعوةٍ للعب الكرة.

تعارف على المحارم الثلاثة، بالملعب - خلف المدرسة -، بلحاهم الطويلة، ونظراتهم الكسيرة.

جَرَتْ المباريات - أولا -، بين الوطنيين و المصريين، سرعان ما تَوَلَّدَ تَعَصُّبٌ مقيت، تمتْ - لذلك - بعثرة اللاعبين، تولد فريقان، جاء هو وطلعت - الأقرب لفهم اللعبة - على رأسي الفريقين، ولم يخلُ الوضع - أيضا - من مشاحنات، ... جدّتْ - بعد الأيام - مشاركة الشباب في اللعب، وكذلك بعض الطلاب.

أضافت الكرةُ - وهذا هو المهم -، عنوانا مشترَكا جديدا، يمكن أن يدور حوله الحديث.

عندما تجهز - بعد المغرب - للخروج، استجابة لدعوة عصام على الشاي، عبَّر مروان عن رغبته في الصُحبه، طالبا الانتظار حتى يفرغ، من استبدال شبشبه، بحذاء مضاد للعقارب.

حجرات البيت منفصلة كالجزر، تتخذ من الجدار الخارجي ظهرا لها، الفراغات بينها كأذقة مسفلتة، بلا أسقف.

على يمين الداخل غرفة كامل، تقابلها غرفة خليفة، بجوارها فراغ مسقوف، به تلفزيون - أبيض وأسود - قديم، تليه غرفة حربي، يلاصقها باب

مغلق، يفضي إلى الفراغ الخارجي المنخفض، في مواجهة غرفة حربي، غرفة مهشمة الباب، منهارة السقف، تملؤها أحجار متنوعة ومخلفات.

إذا ارتد الضيف راجعا، صار مجاورا لغرفة كامل من جديد، فإذا جعلها عن يمينه، وفراغ التلفزيون من خلفه، كان المطبخ الكبير على يساره - يزدحم بأوانٍ متنوعة، وبوتاجازين بينهما ثلاجة -، يفصله عن غرفة عصام فاصلٌ، كسرداب مسقوف - عُرف بغرفة الدجاج -، له شباك حقير داخلي، تفوح منه رائحة كريهة، يليه حمام ضيق، به غسالة يغطيها الصدأ.

أمام التلفزيون المتهالك انقضى الوقت، ذكر خليفة كيف اغتصب نصار التدريس، في الليلية بدلا منه - التدريس للكبار عصرا، بنصف راتب إضافي -، قال:

نصار فتح بيته، وكشف حُرمته على بخيت، الذي زكّاه عند سعد مشعل بالإدارة، وسعد مشعل وكذلك عبيد - والكلام لا يزال لخليفة -، يهمهما إرضاء بخيت، حتى لا يضيق بترددهما - غير المقنع - على المدرسة، وبالتالي على دار العنود.

قال خليفة:

بخيت ولد (عزوبي) مراهق، معه (حتة) دبلوم، ونصار عارف يلاعبه.

قال عبد البديع:

ولد مراهق، ودبلوم، ... ومدير؟ وهل يلاعبه نصار على حساب بيته؟

زفرَ مروان زفرة، محملة بالسُّخط، سأل مفاجئا الجميع:

ما رأيكم في علاقة سرحان بالأمير؟

رد حربي سريعا مغلقا باب الحوار -:

(مش ليلته ياعم الحاج).

...

بعد دراسة الغد، مرت أمام المدرسة سيارةٌ لبدويّ، يتضاحك بحوضها بضعةُ أطفال، نصفهم تقريبا بنات، حرَّكتْ وجوههن البريئة كلَّ ساكنٍ بداخله، طبقةٌ خادعةٌ من التفاصيل الآنية تغطي جُرْحَه، يوشك الجرح أن يكشف عن وجهه القبيح، صور البعيدين استحضرتها العيون، لا تزال رسالتهم الأخيرة في جيبه، تتنقل معه من ثوب إلى ثوب...، شمسُ الطريق مُسلْطةٌ على السائرين، كأنها تعذبهم على ذنوبٍ، لا يريدون الاعتراف بها.

حول مائدة الغداء اكتملت حلقتهم، - اليوم يوم الدجاج الأسبوعي -، أخر

الجالسين كان، في مواجهة سرحان جاءت الجلسة، بينما تُواجَه كلٌّ من طلعت ومروان، قطب جبينُ سرحان، ضاقت المسافة بين حاجبيه، سأل طلعت متأففا:

ـ كنت (لابس جزمه)؟

ـ أبدا.

بادر عبد البديع بالاستفسار:

(ليه؟)، ... أنا (اللي) كنت لابس.

يعي تماما بأنه المعني بالسؤال، فهذه طريقة سرحان الأثيرة؛ يبحث دائما عن معابر ملتفة، ليصل إلى مرماه، يحيطه العلم بكل دقائق طلعت، والتي منها عدم ارتداء (الجزمة) منذ القدوم، دبَّ أسنانه في (ورك) الدجاجة، صوبت عيناه نظرة تقزز، تعلق الورك بين أصابعه، أشار بتقزز أشد:

ـ قُم.. قُم.

...

يسبق هذا اليوم عيد ميلاده الأربعين بيومين، لم يكن ذلك ليخطر على باله، لولا تلك الرسالة الساكنة بالجيب، بالقرب من القلب، محملة بمباركة امرأته، والدعاء بتجاوز العيد الألف، تحاول كلماتها ـ دون فتور ـ، بعث النشوة الخامدة بداخله من مرقدها، ربما كانت تلك اللحظة ـ لحظة الجلوس ـ بداية لمحاولة إنعاش تلك النشوة، حيث كان خط الرسالة الرقيق، آخر ما فارقت عيناه...

ـ قُم ..قُم.

كله وعي بالمقصد من هذا الأمر، وكله يقين أيضا بخطأ هذا المقصد: قدماه لم يكونا أبدا مصدرا لرائحة كريهة، هل كان عليه، أن يرد الأمر على صاحبه؟ هل كان القيام ـ بلا عودة ـ حلا مناسبا؟ ربما ناسب الموقف تفوهه ببعض العبارات الخارجة...

تزاحُمٌ عجيبٌ للأمور، على ذهنه في آن...

ـ قُم ..اغسل رجليك.

دارت رأسه للحظات.

دارت.

كبح جفناه ـ بصعوبة ـ جماحَ دمعتين، وكطفل حمل أربعين عاما فوق كاهله، و... و قام.

...

ظُهر الأربعاء، حمل طلعت إلى بيشة، رده على رسالة زوجته.

...

أيقظه صباح الخميس طَرْقٌ شديد، تفاجأ بفتاة صغيرة - عشر سنوات -، نظرت إليه بريبة، قالت لسرحان - الآتي من الداخل -:

- تبغاك زهرة.

- مَن هناك؟

- العنود عمتي.

غمز سرحان بطرف عينه، موحيا إليه بالتزام الغرفة، لم تمرِ دقائق حتى انصفق الباب الخارجي.

انقضَتْ ساعةٌ قبل أن يعود، قال:

هذه الأخت الصغرى لزهرة من أبيها، تأتي لبعض الأيام، وتترك أمها عند أهلها البدو خلف الجبل، تزوجها قبل موته بسنة - يقصد أبا زهرة -، صمَتَ للحظات قبل أن يضيف:

عادي...، تعدد الزوجات هنا عادي، مثل شُرب الماء.

- ...

عاود القول:

بالحق؛ الجماعة فوق (عازمينك) على الغداء، تحيتك واجبة لديهم كأي جديد.

قال معتذرا:

التحية وصلت، و العزومة لا تصح إلا من أهل البيت.

استدرك - متحاشيا غضبه -:

طبعا قدرك محفوظ، ولكن...

قطع خميس عليهما الحوار، قال سرحان - في إشارة إلى إفطاره هناك -:

جَهِّز الفطور، لك ولعبد البديع يا خميس، قبل ما نشرب الشاي معا.

...

مع الظهيرة جاء قدوم عيَّاض، قال - محذرا بلطف -:

رفْضُ العزومة يستوجب (حق عرب) كبير.

...

صحن كبير، خليط من أرز بالمكسرات والزبيب، ينام فوقه تيس - جدي - صغير، تطل أسنانه من فمه المفتوح، وترتفع قوائمه إلى السماء.

تطوع سرحان بالشرح:

هذه عادتهم، تكبر الذبيحة أو تصغر، على حسب أهمية الضيف، ...

تجوس نظراته، بفتحات البيت، ربما استجابة لنظرات أخرى بالداخل، يتابع - بمهارة - اقتناص اللحم من بين الضلوع، ودَفْع كرات الأرز صوب البلعوم... لَعَق أصابعه مقلدا عيَّاض، مع ابتسامة لزجة ثابتة، أطلق لسانه بأدعية بدوية:

جاد الله عليكم.

الله يرحم والديكم...، و...

متنبه عبد البديع لنظرات صاحبه التي تجوس، إلا أنه يقف غارقا، تتلعثم بين شفتيه، كلماتُ الشكر التقليدية، بدا هذا - على صغر الذبيحة -، إشارة بأن ثمة قيمة له لا تزال...، قال بعد انصرافهما -:

لابد من رد العزومة.

رد سرحان:

على حسابك طبعا.

على حسابي.

...

خَرْجاتٌ عديدة بعد المغرب صارت، يصحبه خميس أومروان، لتناول البارد، أو إلى بيت الشباب، يمطرونه أسئلةً حول رفيقيه، وحياته معهما، ...

هل أرادوا زرع جاسوس، في قلعتهما؟

والغريب أن الرفيقين يصنعان معه، نفسَ الشيء كلما عاد.

...

فتاوى عديدة تدور، حول صلة سرحان بالأمير، منها المقبول، ومنها غير المتوقع، أهمها جميعا تلك المتعلقة بزهرة، التي مالت لسرحان دون الأمير (غاوي الحريم) - على قول خميس -، ولكن لسان سرحان الناعم (أكل رأس) الرجل، وربما - والعهدة على الراوي - فوَّت الرجل المسألة عامدا، طمعا في امتداح الأول له عندها، مما يُعد - فيما بعد - مدخلا مناسب إليها، فالمتعاقد - مهما طال بقاؤه - رحيله أكيد، وعندها يكون لكل حادث حديث.

وزهرة - على أية حال -، لها من المريدين الكثير، لعل الأستاذ ماجد آخرهم، الذي يدَّعي انتماءه لقبيلتها، مستغلا في ذلك تشابه لقبيهما، ويبقى سرحان - على ما يبدو - هو المريد المختار، كما يُقال:

(إذا أعطيت جسدك لمن يحب، فأعط قلبك لمن تحب).

كيف يبتلع الأمير، أن يكون مجرد مُريد، تحت الطلب؟ أين هذا المنتفخ، الذي كاد أن يفتك بالسائق - البيشيّ -، راميا إياه بالعبودية السوداء، لمجرد محادثته من داخل السيارة؟

المريب أن كل هذه الأمور، تبدوا وكأنها سرية، يتعامل الجميع معاً على ذلك، والويل لمن يجاهر، أو يواجه بما هو كائن، وقد تصطدم بنصائح ودروس، عن كل سامٍ و شريف، من أي ممثل، بتلك المسرحية متنوعة الفصول.

...

وتأتي صلة الأمير، بنصار وحُرمته، كمشهد مميز، فقد لعبا معه لعبة جديدة، مشابهة للعبتهما السابقة مع بخيت، والتي بموجبها اغتُصب نصار التدريس بالليلية، بدلا من خليفة ...

و بناء على اللعبة الجديدة، ضمن الأمير - كمسئول أمن - لنصار، الانفراد بالخطابة - بالأجْر - في الجامع الكبير، كما أن الإمارة دائمة العزائم، وبقايا الخراف المشوية كثيرة، وبيت (الخطيب) أولى من الخلاء والعوام.

...

وسط أحد الأسابيع، قال طلعت باسما:

أبو أيمن يدعوكم على أكلة مصرية.

لم يُبد سرحان تعليقا.

انتابت صدر عبد البديع قشعريرة الوجل، ...

...

بعد صلاة العشاء، أقبل الولدان - أيمن وتامر -، انهمكا مع صاحبهما في اللعب، مَنَحَ أحدهما (أجندة جديدة)، وتعلق الآخر بزجاجة للعطر، لم يمض القليل حتى أقبل نصار، ليصطحب الركب دون عناء.

...

أحيا تنوع الأطباق، ذكرى الالتفاف المصري الدافئ، حول المائدة، ومن هناك كانت الرؤية أوضح:

فصوت المرأة مرتفع، رقيق به ميوعة متعمدة، وبجاحة محببة، ينادي على نصار أوطلعت - بالتساوي -، ليأخذ نوعا من طعام أو شراب، كانت لنصار بنت بالصف الخامس، لا تتناسب سِمْنتُها مع سنّها، ثوبها كاشف للساقين والذراعين، قضت الوقت كله بحِجْر طلعت، الذي لم يمنع أصابعه من العبث، أو (الزغزغة) بلحمها، وهي تتلوى ضاحكة، وسط ضحكات الحضور.

الشاي يا نصار - هذا نداء الحُرمة - ..

هات الشاي يا طلعت - هكذا حول نصار الطلب ....

مفتوحٌ خط الكلام بين طلعت - القريب من الباب -، وبين المرأة، ها هو وجهه - الذي لا يواجه عبد البديع إلا عابسا، يملؤه النكد دون سبب معلوم -، ها هو نفس الوجه تملؤه البشاشة والرضا، لا يتورع فمه عن تقبيل البنت (المايسة)، التي تلف ذراعيها حول رقبته، لترد القُبَلَ، في دلع (ماسخ)، دون أن يبدو على أبيها ما يشير، إلى تنبُّهِه لما يدور، مجرد تنبُّه.

ذات دَخْلَةِ ليلٍ، أقبل وجه مروان والحنق يكسوه، صاح:

(هه ...المعرسين وصلوا).

بدت ملامح الفهم، على وجهَيّ الرفيقين، من فم أحدهما خرج السؤال:

- كيف عرفت؟

- الصالون الرمادي هناك- صالون سعد مشعل وعبيد -

قال خميس وهو ينصرف:

ما عليك أنت.

تبعته خطوات عبد البديع في صمت.

العتمة تخيم على المكان، بدت عينا خميس، كعيني تمساح يرمي رأسه على شاطيء رملي، بينما بقية جسده تحت الماء، لهج لسانه بالسباب، قال في ضجر:

حتى الوطنيين -والله -، يعرفون ما يجرى، ولا تتفتح أحناكهم، الخوف ساكنهم.

- وطنيون ويسكنهم الخوف، كيف؟

- بين قبيلتهم وبين أهل الديرة، ثارات قديمة مدفونة تحت الرمال.

ينتمي الوطنيون بالمدرسة، إلى قبيلة واحدة، ومحافظة واحدة تقع جنوبا، عدا الأستاذ ماجد، القادم من مدينة كبيرة، تقع شمالا بين محافظتي بيشة والطائف.

...

في السهرة، داهمهم ماجد بالحضور، طال انتظار انصرافه، قال:

سأقضي الليلة هنا.

لم يكن من المعتاد، أن يبيت وطني عند المتعاقدين، أوالعكس.

بعد دراسة الغد أدركهم، شاركهم الغداء، بغرفة الكراكيب افترش

الأرض وقيِّل، مضتْ بضعة أيام على ذلك، بادرتْ ملامحُ طلعت - كالعادة - بإظهار الضَّجَر، تعمَّدَ ماجد إخفاء أي تأثُّر، طلب سرحان - مرتديا ثوب الحكمة - توضيحا، اكتفت عبارات ماجد المقتضبة، بالإشارة إلى رغبته - فقط -، في ترك سكن الإخوان، فشلت محاولات سرحان اللئيمة، في اصطياد ما يمكن أن ينفخ به، في أذنيّ بخيت.

قال ماجد:

أريد البقاء معكم، لي ما لكم، وعليّ ما عليكم.

ألقى طلعت - بإيعاز من رفيقه - بيان الرفض، احتوى - البيان - على عبارات مطاطة، مثل: هذا عيب، وتلك سابقة خطيرة ، و ...

قال كامل - بعد علمه -:

سرحان خاف على خاطر مديره.

...

التفَّ الطلاب - ذات فسحة -، حول (صالون) أحمر هائج، عَدَّل من وقفته عند مدخل جانبي، غادره قائده قفزا، عُرف - بعد ذلك - بعليّ الشريف - معلم جديد للإسلامية -، من أشراف مكة المكرمة، خَيَّرَتْهُ الحكومة - كسائر الخريجين الجدد -، بين التعيين بالأماكن النائية أوالانتظار، وها هو على بُعد سبعمائة كيلو مترا أو يزيد.

فيه وجد ماجد بُغيته، بدا كأنه مُرسل من أجله، ببيت العنود المجاور شاركا خميساً السكن، لم تمض أيامٌ، حتى سَرَتْ له، بين الجميع مهابة كبيرة.

ممتنٌ عبد البديع، لانتقال لقب (جديد) إلى غيره، يتساءل دون كلل، عن سر تلك المهابة، لجديد هذه المرة، كما تساءل - من قبل -، عن سر مجيء كلمة (شيخ)، سابقة لاسم طلعت.

و للمَكّيِّ طقوسه:

يجوب صالونه الناحية، بحثا عن نبع طبيعي للماء، إلى جوار النبع ترتفع خيمته، يقضي أياما بالخلاء، بزاد قليل ومتاع أقل، يشارك الرعاة رعيهم، يتاجر مع البدو في أغنامهم، يداوم بالمدرسة صباحا، ويعاود الكرة، يصحبه ماجد حينا، و حينا يخلدان إلى السكن ،... هكذا دون ترتيب.

فصيحا يعطي الفتوى، لايغير الإطراء سحنته (الخمرية) الهادئة.

قال كامل:

شريف بجد.

قال العم إمام:

رجُل (كُبّارة).

يقفل إلى مكة، تروح الأيام، قبل أن يعود بسيارة جديدة، يبيعها أويقايض عليها، وقد يشتري، يقول:

تجارة السيارات مهنتنا هناك.

حاولت عبارات بخيت ـ المرتبكة ـ لومه، على الغياب بمكة.

عاجله بنبرة حاسمة:

لستَ مَن يحاسبني، سَجّل غيابك بصدق، و ما عليك.

اغتمّ وجه بخيت، ردد:

صَدَقْتَ... صَدَقْتَ.

أيَّةُ قوة تكمن، في هذا الكيان الضئيل؟

قال خميس ـ الذي قلَّ تواجده ـ:

الأميركان عندنا اليوم.

سأل سرحان بلهفة:

ـ خير؟

ـ رمى غترته في حجْر الشريف ـ عادة بدوية للتوسل ـ، حتى يقبل عزومته.

ـ وأخيرا؟

ـ وحياتك عاد بخاطر مكسور.

لا يتواجد سرحان ـ عامدا ـ، في حضرة الشريف إلا عرَضًا، عندها تبيَضُّ شفتاه، ولا تنطقان بكلمة.

انشغل خميس بساكنيه الجديدين، يأخذه التعجب من دواعي الاختلاف الكثيرة بينهما، ومن حياتهما التي لا يفوتها ـ مع ذلك ـ الوفاق، يتخذان الأرض لجنوبهما فراشا، هاجرين الأسِرَّة، لا يقربان الطعام، إلا بعد جوع طويل، وإذا قرَباه فالقليل القليل.

قال كامل:

المكيّ مُعْرِض عن المُزاح، حياته حياة الزهاد...

في غيبته يطلق ماجد النكات الخارجة، بل والجنسية، يتعمد التلكُّوءَ حول بيت العنود، طمعا في دعوة منها، حياته حياة البخلاء، بُخْلُه ـ والكلام لا يزال لكامل ـ سبب مفارقته لسكن بخيت وإخوانه، إضافة ـ إلى قلقه من خلافات

قبيلتهم المزمعة، مع أهل الديرة، الذي يشيع قرابته لهم.

لا يأتي ذِكْر ماجد، على لساني سرحان و طلعت، إلا مقترنا بالذم، مثله مثل خميس -معَ خدمته لهما-، ومثل كل المتعاقدين، عدا نصار، حيث لا يشارك طلعت في ذكره بالسوء، لكنهما - مع ذلك - لا يمتنعان عن إظهار الترحيب بالجميع، عند أيَّةِ مواجهة.

فتح الشريف وماجد، بابين جديدين لعبد البديع، تطمئن أذناه لحوار الأول و لمنطقه المحكم...

كما يبدو الثاني متفهما، لحياته مع رفيقي السكن، يقول - مهونا -:

اختلاف الناس، يولد اختلاف الطباع، وهناك اعتبارات عديدة وغريبة، تحكم العلاقات بالديرة، كلها تقريبا تتعلق بالمصلحة، ...

أضاف - مُعرجا على حاله، مع الوطنيين -:

نحن مثلا؛ فينا الوطني الأصيل كأهل الجنوب، وفينا مَن كان جده عبدا أسود، ظل موصوما إلى اليوم، بأعراف خاصة في المعاملات والزواج، وأشياء عديدة، مرتبطة بقائمة طويلة من المحظورات، وهناك مَن استوطن جدُّهُ الوافد - زمان -، من حُجاج ماليزيا أوالهند أو...، وهذا أيضا له أعراف صارمة، وحدود لا يتخطاها...، ويبقى المقام محفوظا للأشراف، ونسل آل البيت - عليهم رضوان الله -، و...

ومن صِنْفٍ إلى صِنْفٍ، تختلف نظرة البشر، وتترتب حقوق، وتتحتم واجبات.

كاد عبد البديع - المفاجأ - أن يسأل:

وأنت من أي صنف تكون؟

لكنه آثر التعليق ضاحكا:

يبدو أن آثار الشريف الفلسفية، ستبدأ في الظهور عليك.

...

واجَه - للمرة الأولى - سعد مشعل؛ متوسط الطول، حليق الذقن، لامع البشرة، له انكسارة خفيفة بإحدى عينيه، تَقَدَّمَ الفصول روتينيا، قال بخيت مُقدِّما:

هذا آحدث المتعاقدين، واسمه ...

لوَّح بظهر يده قاطعا التقديم.

بالفسحة، سأل مروان بانفعال:

هل مَشّى الأعور؟

عُرف لاحقا أن لسعد عينا صناعية، لعلها سبب تلك الانكسارة الخفيفة، في نظرته.

واصل مروان:

اللهم اجحم (عبيد)، الذي بقى بدار العنود وحده، والله أعلم بحاله الآن.

همس كامل محركا سبابته:

احذر أحسن لك - أشار نحو الوطنيين في غرفة المدير -.

ولم يكن فم مروان - حقيقة -، لينفتح أبدا في حضرتهم.

مرَّرَ حربي ضحكة متلائمة - لم يشاركه فيها أحد -، أومأ نحو طلعت وولَدَيّ نصَّار، المنهمكين في اقتسام علب العصير.

أقبل خليفة مُحمرّ الوجه، يضرب كفّاً بأخرى؛ قال للولد بُراز بن جربوع:

اجلس يا خايب.

فأقسم الولد، أنه سيطلب من الشايب - والده -، أن يشتري لهم معلما غيره.

علتْ الحُمْرة الوجوه، شرع كامل في تفصيل نكتة تناسب الموقف.

قاطعته جدّيَّة خليفة:

الولد أكّد أن الواحد، بخمسمائة ريال لا غير.

قال مروان:

الله يجحمه، حطكم مع العمَّال الهنود، في خانة واحدة؟

قال حربي محاولا التفسير:

أصل والده (مُحترف)؛ يبني - على الورق - شركات وهمية، ويطلب ترخيصا باستقدام العمالة الأجنبية، للعمل بها - هنود وبنجال و...-، يتركهم يعملون هنا وهناك، مقابل نسبة شهرية يدفعونها له.

قال عصام - المكتئب -:

إتاوة يعني.

لم تفارق الحُمرة وجه خليفة بعد، سأل:

حلال هذا أم حرام؟

قطع الحوار قدوم زائر جديد، بوجه ناصع، وخطوات رصينة، تتدلى على صدره لحية، كنُدَف الثلج، أقبل الوكيل منبها:

موجّه إسلامية يا رجال.

أثنى الموجه، على أحد المعلمين الوطنيين، قال المعلم:

رجلٌ طيّب، سوري من أصل فلسطيني.

ترَحَّم عبد البديع، على الوحدة المصرية السورية، وعلى شهداء فلسطين، داعيا لإخوانهم الأحياء بالنصر...

فاجأه الموجه بالزيارة: الإسلامية ليست مادته الأصلية، ومعظم حصصه لغة عربية، كيف إذن تم تصنيفه؟

جاء حفظ الطلاب للقرآن طيبا، إلا ولدا شاردا، وتوأمين متخلفين، أشار هو إلى أهمية اقتران الحفظ بالفهم، نبه الموجه مشددا، على الالتزام بالحفظ فقط، مغلقا أي باب للنقاش، واكتفى بخيت ـ الحاضر ـ بدور المتفرج.

...

راح الفكر بعيدا:

هل لا زال الخطيب وإيهاب وأمل ـ طلابه قبل الرحلة ـ، على رأيهم في الغربة، كمؤثر قوي في تجربة شوقي الشعرية، وتحديدا فيما يتعلق بدورها، في تنمية حسّه الوطني؟

كم مرة دار النقاش بيتهم، من أجل الوصول إلى نقاط اتفاق صحيحة، أين مقولته الأثيرة، التي كثيرا ما رددوها معه:

افهموا أولا دون قلق، وحتما سيأتي الحفظ.

...

غرفة المعلمين خانقة، قادته قدماه إلى الخارج، صادف ذلك القدوم اليومي ـ بعد جرس الفسحة ـ للأغنام من كل صوب، قاصدةً فضلات طعام الطلاب، كأنها تثبت عمليا، صحة نظرية الارتباط الشرطي الشهيرة.

نَهَرَ نفسَه منبها، إلى عدم مناسبة الوقت للتفلسف.

وصل إلى سَمْعِه، حوارٌ عارضٌ لطالبين، مؤدّاه أن حَنَشاً أسود، لدغ أخا لأحدهما بالأمس، فنزفتْ كلُّ فتحات جسمه ساعةً، قبل أن يموت، تحسَّر الآخر: لأن الميت كان مدينا له بريالات خمس، وبدلا من سد الأول عن أخيه، طلب من الدائن المسامحة، وافترقا دون اتفاق.

حنشٌ، وموتٌ من لدغة واحدة؟ ثم ما هذا التباسط، في تناول مسألة الموت؟

أعاده الحوارُ، إلى حيثيات دارت ليلة الأمس، بالردهة المكشوفة:

كان كلٌّ منهم، متكئا اتكاءة مختلفة، يتابعون ـ تلفزيونيا ـ مباراةً للكرة، إذ بطلعت يصرخ:

حنَش يا (عيال) حَنَش.

اعتاد طلعت - منذ مدة - على مَزْحَةٍ ثقيلة، خصوصا عند رغبته، في إضحاك سرحان أو مصالحته، إذ يفاجئهما بإلقاء وَصْلَةٍ من خرطوم رفيع، وهو يصيح محذرا من الحنش، ثم يستغرقه الضحك، على ردود أفعالهما التلقائية، ولما لم يلحظ اهتماما - هذه المرة -، أعاد الصراخ مقترنا بالقَسَم، ...

بدا الحنش قريبا من المترين، يزحف - كالمخَدَّر - نحو الشاشة، محاولا التقاط الجراد المتقافز حولها.

صرخ سرحان فَزِعاً، خطف ماسورة مجاورة للسلم الحديدي، رفعها عاليا، وأعملها مرارا في رأسه، ...

على بعد أمتار، بجوار الباب الفرعي، أسفل الجدار، أشار عبد البديع - شبه الأخرس -، إلى خيال أسود يتحرك، قال طلعت - قبل أن يسحقه - :

هذا عقرب كبير؛ العقارب تأتي عادة، في ركاب الثعابين.

كانت صفارة الحكم، تعلن عن نهاية المباراة، وَاكَبَ ذلك دقَّ النوم، لأبواب العيون.

...

قبل الظهر بلحظات، حانت فسحة الصلاة، تابع المشرفون الوضوء، وجَّهوا الصفوف - ككل يوم - نحو الجامع الكبير، بالصف مرّ الولد أيمن نصار.

نال لسان مروان ومن والديه، ذاكرا فشلهما في شرائه بالعزائم، واستغلال نزوله المتكرر، في حمل المقاضي لهما من بيشة، قال مستنكرا: مسخرة...

أنا أشترِي مكرونة، وسلمون، وبيض، وخيار، ودستة (كُلتات) حريمي على ذوقي؟

طيب، وعلى ذوقي أنا (ليش)؟.

عموما - يُكمل ضاحكا -:

البركة في طلعت، ...قصدي الشيخ طلعت موذن المسجد.

قال عبد البديع:

يعني طلعت نال المشيخة، لمجرد الأذان في مسجد (مترين في مترين)؟ ...(يا بلاش).

بالفُسَح لاحظ تكرار ظاهرة غريبة:

يترك الطلاب الحمامات، وينطلقون وراء المرتفعات القريبة.

قال مروان:

أولاد الـ ...، كأن قوم لوط لم يهلكوا بعد.

- يعني؟

- افهم يا أخي، افهم...

- طيب وأولياء الأمور؟

- أولياااء؟

استدعى المدير - مرةً - والدَ تلميذ (مفعول به)، انتفخ الرجل زاعقا:

أمن أجل هذا فقط؟

قال المدير:

نعم.

قال باستخفاف:

يا رجل، قدِّرْ الأمور (زين)، اليوم عليه وهو صغير، باكر له وهو كبير.

أشار البعض باستبعاد الطالبين - أحدهما (الفاعل) من المتوسط، والآخر من الابتدائي ....

أعرض بخيت رافضا، خشية ظن أهل الديرة، بأنه - كابن من أبناء قبيلة تناصبهم الاختلاف -، يتحين الفرصة للتعريض بأبنائهم.

٩

تحتفظ الديرة - لا تزال - بمكنوناتها الخاصة، حتى في مصالحها الحكومية؛ فمدرسة البنين تابعة لبيشة، والبنات للطائف، أما المستوصف البدائي والإمارة، فيتبعان محافظة مكة.

حَكَايا متوارثه تُتْرَى، حول اسمها المشتق من كلمة (عُفار)، يقول عيَّاض في إحداها:

تأتي العواصف، ترسل الدنيا عُفارها في كل صوب، تختفي كثبان رملية عديدة ومنخفضات، وتظهر أخرى، لا يجرؤ كائنٌ حي، على مُغادرة مكمنه، ونادرا ما ينجح الشاردون في الرجوع،... تنعدم الرؤية، ويصبح التقاط الأنفاس شيئا عسيرا.

قال خميس:

الروايات عديدة، ولكن أيها الصحيح؟... الله أعلم.

متمدد سرحان على ظهره، عاقدا كفيه حول رأسه، وكأنه في غيروعي.

بأحد صباحات الخميس، امتلأت جلستهم بالشوارد، لا ينقصها سوى مروان و طلعت، الغائبين منذ الأمس.

...

بدا سرحان - عصرا - كقط حبيس، كثير التأفف، يعيد استماع شريط غنائي، لمطربة سورية تقيم في مصر، تعلو جبهته علامات التأثر، استجابة لكلمات الحب والفراق والحنين، و...

أقحَمَ عبدَ البديع - على غير العادة -، في حديثٍ حول أسرته، قال إن زوجته موظفة بالصحة، وأنها شبيهة مغنية مصرية اسمها نادية، وسميّتها، بسَطَ عدة صفحات لمجلات وصحف، تحوي صورا للمغنية، انبطح يتأملها في أسى، ثم ألملمها بحرص، محولا الحديث إلى ولديه وابنته؛ هداياهم التي اعتاد حملها، مهاتفتهم التي تبلع الريالات بلعا، واستقدام الأسرة، الذي لا يوفر ريالا، إلا بالشُّحِّ أو (التعريس)!

سيطر على عبدَ البديع انتظارٌ حذر، ردد - بعفوية -:

تعريس؟

- نعم تعريس.

- ...

بدا حديثه كَمُهِمَّةٍ لابد من إنهائها، انتقل إلى قريته بالمنوفية، وأهلها المساكين، ونجاحه في السكن بالمدينة، وظروفه العديدة - دون تفصيل -، التي فرضت اعتماده على نفسه، ويوم خطوبته، الذي لم يجد فيه من يذهب معه، وتعيينه بدبلوم المعلمين أولا، قبل انتسابه لكلية الآداب، وتعَرُّفه على طلعت هناك.

كادت الغفوةُ أن تأخذ السامع، نبهته نبرة المتحدث، التي ارتفعت قليلا:

هو - أي طلعت - من عزبة صغيرة، قريبة من بلدنا، ... إنسان طيب، لكن ...

- لكن ماذا؟

- لاشيء، ...

هو خاطب الآن، كان يبادل بنت خاله الحب، حالَتْ المادة - قبل سفره - بين ارتباطهما، ... خاله مادي، مادي جدا.

- ونصار جمعة؟

- نصاااار، الله يحرقه، سبب كل (البلاوي).

- أي (بلاوي)؟

- لا شيء، ... قلت لك.

هكذا جاء رده، بعد خشيته - ربما -، من انفلات زمام الحرص، قال مغيرا الموضوع:

لديَّ ستون ألفا، هي كل حصاد الرحلة، أريد مشورتك لاستثمارها، كدمياطي شاطر.

يعرف السامع أنه أبْعَد ما يكون، عن شطارة الدمايطة هذه، بالذات في التجارة، تنحصر حياته بين عمله كمدرس، وبين الأدب - قراءة وكتابة -، إلا أنه وجدها فرصة، ليتقمص دور الناصح؛ اقترح عليه المتاجرة، في الأثاث الجاهز، واعدا بالاستعانة مستقبلا، بمعارفه الأكثر دُرْبَة.

هل احتل هذا الاقتراح حيزا، من عقل صاحب المال؟ ربما...

يوقن صاحب الاقتراح، أن نوعية رفيقيه من البشر، لا تصلح لأيِّ تواصلٍ آت، وأن صلته المستقبلية بهما، لابد أن تكون مثل صلتهما بالأدب والأدباء:

فيوسف إدريس لا يعني - عندهما -، سوى قصة ''نظرة''، المقررة على طلاب الثانوي بمصر، أما يحي حقي ويحي الطاهر عبد الله، فلا أثر لهما داخل الذهن، وإذا ذُكر أمل دنقل، اختلط عليهما الأمر - هل اسم ''أمل'' لمذكر أم لمؤنث؟ -، كيف تكون الحال إذن، بالنسبة للطيب صالح ومشري والكوني،

و...؟ أما شتاينبك و تشيكوف و ماركيز وبوتزاتي، و...، فأسماء - غالبا - لأدوية أو أجهزة كهربائية.

حاول استنطاقهما حينا:

- ما الحياة؟

- كفاح.

- بمعنى؟

- أجاب كل منهما مكملا للآخر:

أكل، شرب، زواج، أولاد، فلوس، سفر، مشروعات،...استمتاع يا ابني استمتاااع.

- والكتب؟

- الكتب المدرسية؟ ..مالها؟

- ...!

يملأ قلبيهما، وسواس إلغاء العقد، هذه السنة الرابعة والأخيرة - فرضا - لطلعت المتعاقد رسميا، والخامسة لسرحان المتعاقد شخصيا.

سألهما:

أترغبان في النقل من الديرة؟

رد سرحان سريعا:

أبدا أبدا.

- كيف؟

- الواحد (واخد وضعه)، لا محلات كبيرة، ولا كلام فارغ يضيع الفلوس.

اكتفى طلعت بمط شفتيه، امتعاضا من السؤال.

تلبّسَ السائلَ السكوتُ، ذهب فكرُه بعيدا، قال طالبا المشورة:

أريد استقدام الأُسْرة.

صرخ أحدهما:

إياك.

أكمل الآخر:

خليفة وحربي استقدما الأسرتين، وأعاداهما سريعا، المصاريف نار.

أرْجَعَ خليفة - عندما سُئل - إعادة الأسرتين، إلى سوء صحة الأولاد، خصوصا جلودهم، حيث صارت ككعبيّ كامل، بشقوقهما الغائرة، رغم المراهم والجوارب.

يتحتم على الراغب في استقدام الأُسرة، أن يكتب طلبا، ترفعه المدرسة إلى الإدارة، التي ترسل نموذجا خاصا، يُردُّ إليها بعد تعبئته، ومن ثم يُرسل إلى الوزارة، ومنها إلى الخارجية، ثم السفارة المصرية... وهكذا...، تمضي الشهور، قبل أن يأتي الرد، بالرفض أو القبول، ...

لم يترك عبد البديع لنفسه - مع ذلك - مجالا، سوى كتابة الطلب، كخطوة أولى من تلك الخطوات.

بذور واهنة للود - مع سرحان -، على وشك النمو، تَقْوَى في غيبة طلعت، ومع عودته يعاودها الوَهَن؛ فيحل الضجر، ويتقلص قاموس كلماتهما معه، إلى أدنى معدل، تعلو (مناغاتهما) معا خلف باب واحد، فيما يُعَدُّ تفسيرا خاصا للحرية:

افعل ما تشاء، دون اعتبارٍ لمن يشاء...

هل من مُعترض؟

...

صبَّحهما خميس بخبر جديد - قديم -:

العم إمام - عامل ذيب سعيد - عاد من مصر.

وهذا ما يعني عودة الحياة، إلى تلك الحجرة الكائنة بالمنخفض، على مقربة من واجهة البيت، سوف تتردد بداخلها وحولها، قهقهات ونِكَات، ذلك المُسِن الأسمر المصصوص، ستصنع كفّاه الخبز رغيفا برغيف، وتبسط الأواني الواسعة عند نزول المطر، لتجمع ماء محببا إلى نفسه.

بجوار الحجرة، يُحَوِّطُ بارتفاع حَجَرَين، بضعةَ أمتارٍ من الأرض، صانعا انبعاجة في اتجاه القبلة، يقول:

هذا مصلاي، مَن يبغى مشاركتي أهلاً به.

يسافر معه - ذهابا وجيئة - سريره (السَّفَري)، بحاشيته الإسفنجية، وبطانيته فاقدة اللون، يقسم - كلَّ مرةٍ - أنها سَفْرَته الأخيرة، يطالب كفيلَه بتأشيرة (نهائية)، ويصر الكفيل على الإتيان بها(خروج وعودة)، يقول:

يمكن تبغى العودة يا إمام.

تزداد - مع عودته - المزرعة خُضرةً، والغنمات سِمْنَةً، يلهج لسانُه بحكمة الفلاحين، فلا يملك السامع لنفسه إلا الميل، والانجذاب، يملأ الدنيا تفكُّها - عكس الآخرين - حول كفيله ذيب، الذي يريد أن يؤمه في مصلاه، يصيح:

بلا إمامة بلا نيلة، خليه محظوظ بخيبته.

ولذيب سعيد خيبةٌ ، عُرِفَتْ باسمه في الديرة ، ملخصها ـ والكلام لإمام ـ:
إنه وأثناء عودته من المحافظة ، بصالونه الأسود ، سلك الطريق الفرعية ، إذ حجبه السيل عن الرئيسية.

بالطريق ـ نادرة المارَّة ـ ، صادَفَ راعيةً بدويةً ، راودها عن نفسها حتى مالتْ ، عندها فاجأه البدو ، بدا الأمر كأنه كمين منصوب ، ... بعد أخذ ورد ، حُكِم ـ في ما يشبه مجلسا للعرف ـ بتزويجهما ، و تغريمه مائتي ألف ريال ، يحرر بها وصلا ، لا يسترده إلا بعد السداد ، ولما ماطل في السداد ، تمت شكواه (رسميا) و سُجن.

يقول إمام:

لا نرى سحنته إلا في الأجازات ، (وآل أيه) يبغى يؤمني في الصلاة ، (ياخي يُك) ... هكذا ينهي ـ ذلك الصعيدي ـ كلامه ، بلفظ تركي ، لا يدري أحدٌ ، كيف وصل إليه.

تمتلئ أذنا ذيب بالكلام ، فلا يُبدي إنكارا أو تأففا ، يرتج كرشه مع القهقهة ، يقول بفصاحة:

يا ولد يا إمام ، ومثل هذا ألا تفعلون؟

...

بعد رحيل الشمس ، وصل ركب طلعت ومروان ، أزالا غبار السفر ، قال سرحان:

- سأجهز أنا العشاء.

أضاف مشيرا لعبد البديع:

هات لنا بطيخة من البقالة.

نصحه خميس باتخاذ طريق المزرعة ـ الأقصر ـ.

بعد نصف المسافة يمينا ، بناية مهجورة بلا سقف ، أمامها يسارا تجمعات لشجيرات قصار ، من وسطها انبعثتْ أصداءٌ مريبة ، عجز ضوء الكشاف الواهن ، عن اكتشاف الأمر ، قاوم توجُّسَه مواصلا المسير ، بعث الموقعُ ذاتُه بما يشبه خُوار ثورٍ يُذبح ، تُصاحبه جَلَبَةُ كلبٍ حبيس ، داخل صندوق خشبي منتفخ ـ هكذا تخيّل ـ ، ...

أدار ظهره مطلقا ساقي العودة ، يحبس لُهاثُه الكلمات في حلقه ، سأل خميس بانفعال:

مالك؟

- عفـ ريت، والله العظيم.
- تعال خلّينا نشوف...

....

- استلقى الرجل قابضا على بطنه، وهو يردد:
عفريت!
(جحش) عبد الله المصري عفريت!

....

وظلت تلك الواقعة، مصدرا للتَّندُّر، عند كل مناسبة سانحة.

...

وجحش عبد الله - على ضآلته -، ليس ككل الجحوش، إنه وسيلة الاتصال الوحيدة - أيام السيل -، بين شطري الديرة، الذي يفصل بينهما مجرى الوادي:

عندما يشتد الحر، تزفر الدنيا منذرة بالجفاف، وتُغَيِّر مُلُوحَةُ الماء جلودَ البَشَر، ينادي المنادي - بأمر الأمير - في أرجاء الديرة، يتجمع - بملعب المدرسة - نفرٌ قليل من البدو، يخطب فيهم نصار، يحثهم على الدعاء وطلب العفو، يؤمهم في صلاة الاستسقاء، يجيء المطر أو يمتنع، عند مجيئه يمتلىء الوادي بالسيل، يهيج كنهر هادر، تعجز السيارات عن قَطعِه، لا يجد القوم إلا الجحش.

يصطف عبد الله مع المصطفين، يطلب الناس على الشاطيء الآخر حاجتهم، يعقد عليها الرباط، يعتلي الظهر كملك متوج، رافعا الحاجة عاليا، يقطع جحشه السيل بعناء، مشرعا أذنيه عاليا، فيما تلامس أظلافه الأرض، فينعم بحفنةِ فولٍ أو شعير، ويَقْنَعُ صاحبُه بأجرٍ قليل.

تنتفخ صدورهم بهواء الضحك، يرددون:

جحش شيطان وراكبه شيطان.

إلا أنهم لا يحملون للجحوش - عامة - أيَّ ودٍّ، فصوتها منكور، ولحمها مُحَرَّم، و للفراش جلدها لا يصلح، يرددون:

عن ركوبها تغنينا السيارات، والسيل لا يأتي كل يوم، وإن أتى فجحش عبد الله موجود.

...

عدَّلَ مروان من وضع ظهره، نافضا إرهاق السفر، على جلستهم هبَّ عِطر طلعت، الأكياس في أصابعه حُبلى، تتوافق (خشخشاتها) مع مشيته

العجولة، في بيت نصار ستُفرغُ ما بأحشائها من المقاضي.

اهتزت رؤوسهم...، أصدر سرحان زومة مكبوتة، وارتَه غرفته وقتا، عاد بسيجارة مشتعلة، وحركة متوترة...، اكتفى الحضور بالنظرات.

(زوِّجْنا الولد وعُدنا)؛ بتلك العبارة بدأ إمام الجلسة، ضرب يده في جيب صديريه، أخرجها (بكتشينة)، سأل:

مَن يلاعبني؟

ارتفعت يد سرحان الخالية من السيجارة، قال:

اغلوا لنا (قُرنفل) يا جماعة.

قال مروان:

معي (كيك) بيتي.

رد خميس:

وأنا عليَّ القرنفل.

همس عبد البديع بعفوية:

كيك بالقرنفل...، هذا والله يصلح عنوانا لقصة قصيرة.

مال صاحب الكتشينة نحوه، كشفت بسمتُه الحانية، عن نابين أسمرين بينهما فراغ، قال:

الحمد لله كان آخر الأولاد، في سِنَّك (كده)، وشَبَهَك.

بعد الجلسة، طلَّتْ رأسه داخل غرفة الشبيه، قال لخميس:

اعمل له (ترابيزة) يا (جَدَع).

- حاضر.

- (مفيش) سلك على النوافذ طبعاً.

- (مفيش).

- بكرة أركِّب لها السلك.

صَدَّ السلكُ الحشرات - بعد تركيبه -، عن نافذتي الغرفة، وحلّتْ ترابيزة خميس مشكلة كبيرة، في ظرف أكبر.

...

ذات صباح - بعد الطابور -، بادَرَه المدير بالاستدعاء، قال آمرا:

عليك باستلام عهدة المكتبة، من نصار.

حاول الاستفسار.

لم يزد بخيت عما قال.

لم يُبد سرحان رأيا.

أبْدَى طلعت حماساً للاقتراح.

قال خليفة:

مكيدة جديدة من مكائد نصار...، عموما المكتبة لم يتم جردها منذ سنوات، ونصار - في كل نُزْلةٍ لمصر - يملأ حقيبة بالكتب، ويدَّعي إعادتها بعد القراءة.

- والعمل؟

قال حربي - متجاهلا السؤال -:

بخيت كان على عشاء نصار أمس.

قال كامل - القرفان -:

يعني أعطاه (الدبوس) المتين.

-...

تعلل عبد البديع بضرورة الجرد.

قال بخيت:

اجْرُدْ مع نصار، أوخُذْ المفتاح منه، واجرد مع أيِّ زميلٍ تشاء.

- ولكن...

- ولكن ماذا؟!...

لن تتسلم سوى الموجود فعليا،... ارتحت؟

...

بدت ثقته في نصار كبيرة، بدرجة لم تترك لحدثه أي مجال، للفكاك.

امتد الوقت دون إنجاز:

، أعرض الزملاء عن المشاركة، خشية المواجهة - دون داعٍ - مع نصار، ونصار لا يسلم المفتاح، ولا يشارك في الجرد، بدا كلاعب سرك محنك، يريد الانقضاض على لعبته لينهيها بنجاح، أمكنه استدراج الفريسة - عبد البديع - إلى جُحْره، حاصره بعبارات ود جديدة، تلتْها عبارات أخرى لحُرمته؛ بين يديها صينية فضية، يتوسطها طبق للكعك، بين كوبيِّ العصير والشاي، لديها قدرة على ترقيق الحروف، ترقيقا لا يضاهيه سوى فستانها البرتقالي، على جسدها الموزون.

غادر نصار الحجرة لدقائق.

- اقتربت.

- ارتجفت ركبتاه.

- قالت:

أهلا.

- ...

- اهدأ.

- امتد الارتجاف إلى سائر بدنه، ...

تراجَعَ.

- أنا ...

- قاطعها مناديا:

أستاذ نصار.

أقبل نصار ببعض الأوراق، على فمه ابتسامة متسعة.

- اعتدلَتْ في ثبات، قالت وهي تتصرف:

عندنا مكرونة باللبن، أجيب؟

أجاب نصار:

بسرعة وحياتك.

التفت إلى ذلك الغارق في عرقه، وضع الأوراق بينهما، قال:

هذه كشوف المكتبة جاهزة، وسليمة، وكأننا جَرَدْنا.

- والمطلوب؟

- توقع بالاستلام، ونخْلَص.

- والعجز؟

- لا عجز، و أقسم لك.

- أحتاج مهلةً للتفكير.

نَضَحَتْ نظراتُه بغيظ مفاجيء، أشار لامرأته - القادمة بالمكرونة - لتعود.

...

لم يجد بخيت بدا، من تشكيل لجنة، اكتشفت اللجنة عجزا صارخا، اجتمع بنصار متظاهرا بالغضب، ثم انغلق هذا الباب نهائياً.

...

يتكفل نصار بكل حصص الليلية، يشاركه - على الورق - بخيت، الذي لا يطيق الإمساك بالطباشيرة، يقتصر دوره - فقط - على استلام الريالات، ... هل لذلك دخل في إغماض عينه، عن مسألة الجرد؟ أم أن هناك أسبابا أكثر

أهمية؟

...

شارك سرحان - لأول مرة -، كُلا من طلعت ومروان النزول، خانت فرصة عبد البديع، ليمارس إحساسا تمناه - إنه صاحبُ بيتٍ -، منح لحركته فيضا من حرية، قتل بالمطبخ وقتا، انبطح أرضا وسط الردهة المترامية، فارق شعور الخشية، من العيون اللائمة، أوالمستنكرة، بدت روحه أكثر أُلفة، رغم وحدته جسديا.

تنبه - وكأنه يكتشف - لغرفة (الكراكيب)، مغلقة هي دون قُفل، تفصلها عن غرفة سرحان رُدهة (التلفاز)، بأركانها تتناثر أشياءً وأشياء:

عصيّ، قُطَم حديد، بوتاجاز حدّادي قديم، كتب مدرسية، دفاتر تحضير مستعملة للرفيقين، ولمجهولين سابقين، كل شيء مُتْرِب، وثمة أقفاص من جريد، ببعضها تلهو الصراصير، بين بقايا بلح جاف، تتكدس بأحدها رسائل بالعشرات، ملأ غبارها الفضاء المتاح، لم تتمكن إرادتُه من مقاومة الفضول، أفصحتْ - الرسائل - عن شطر كبير، من تاريخ طلعت الخاص:

أمه (بهية)؛ لا زالت تعمل بالبيوت، والده عامل الصحة المتقاعد المريض، أخوه الغائب بالعراق دون خبر، البيت المتهالك الذي يعوزه البناء، المبلغ - الذي يرسله - لا يمنح أخوته السبعة الكفاية، و...

- مسكينٌ والله أيها الجلف...

هكذا هتف متعجبا، من أولئك البشر، المُرتدين أقنعة للآثام، لا مبرر لارتدائها.

أعَادهُ الظَّرْفُ، إلى التأمل من جديد، في علاقة سرحان بطلعت، وعلاقتهمُا به، وبمروان؛ الذي يضمران له بُغضا، لا هوادة فيه، كما أنه يعبِّر صراحة - للغَير -، عن مبادلتهما البُغْض، واصفا أحدهما بالحنَش، والآخر بالثور الغشيم.

...

سرح عقلُ عبد البديع في رحلات جدلية، ربما تكون بلا جدوى:

ما الذي يُجبر إنسانا ما، على ممارسة الهوان؟ هل بالدنيا - حقا -، ما يستحق كل الضغائن الكائنة؟

وماذا يجبره هو - ذاته -، على مواصلة تلك المسرحية؟

أيحتاج المرء أحيانا - كسمك القرموط -، إلى العيش وسط الماء العكر؟

يجيب على نفسه - دون قناعة تامة -:

رغبته - أخيرا - في أن يفعل شيئا بنفسه، نعم بنفسه: زوَّجه أبوه، وأسْكَنه، ولا يزال بصغاره متكفلٌ، مشفقا على راتبه الهزيل.

أم تُراه سيواصل المسرحية - فقط -، ليرى لقطة النهاية المنتظَرة، متحملا أي هوان.

هل يجوز منطق كهذا؟

الرأسُ مترعٌ، والنفس هائمةٌ، مُسْلِمٌ هو ظهرَه لحاشية رقيقة، فوق سريره الصديء، تتكفيء مفتوحة فوق صدره، روايةُ (العيب) ليوسف إدريس، عشراتٌ من رءوس البرص، تطل من بين خشبات السقف، ترسل أفواهها تثاؤبات الكلالة، تصطدم نظراتُه بالمروحة المعطلة، والمعلقةَ كمشنقة، فتعيدُه إلى وعي اللحظة، بما فيها من لهيبٍ تبُخُّه الجدرانُ... تنبَّه لطَرْقٍ خفيف بالخارج، انتفض سائلا:

مَن؟

أجاب صوت أنثوي غضّ:

أنا.

قالت - بعد فتح الباب -:

أختي زهرة تسلم عليك، وتبغى علبة كبريت.

لفّه خليطٌ غريب من المشاعر: هل يُعقل عدم وجود كبريت لديهم؟ ولو فُرض فالبقالة قريبة، وخميس رهن الإشارة، ثم - وهذا هو الأهم -، هل لوجوده وحيدا علاقة بالأمر؟ هكذا بدأت حواس التوتر لديه في العمل، لابد من تقليب الأمور على كل الأوجه، ما قيمة محاذير سرحان إذن، إذا بقى على نفس الحال، التي جاء بها؟

أخرجه من تلك التراكمات نداء البنت:

عبد البديع - بكسر الباء -،...فيه ولاّ ...

- فيه ،...

أسرع متعجبا، من ذِكْرِها لاسمه هكذا مجردا، أتظنه عاملا لديهم؟

عندما ناولها العلبة، قال - بثبات -:

لا تُعاودي المجيء، في غياب الزملاء،... مفهوم؟

تناثر الدَّهَشُ حول خطواتها، وهي تصعد المرتفع عائدة، ورغم جهله بردّ الفعل المنتظر، فإن شعورا غريبا بالراحة قد انتابه.

١٠

اندمجت لغته بلغتهم، استطاع الفهم - أخيرا - أن يصل بينهم، طُلاَّبُه هم وهو معلمهم، حَكَّمَ الفُصْحَى ليقيم الجسور، ثقةٌ ما دبَّت بينهم، شعور جديد يلفه، يستعيد به قليلا من مجده القديم، بين أولاده - طلابه - قُرب مجرى النيل، فاجأه بعضهم بتفاصيل عديدة، وأحكام دقيقة، على العديد من المتعاقدين، كسرحان ونصار و طلعت و ...

...

حلَّ موجِّه (العربي) على المدرسة، لم يزره، بدا كمن تُنتزَع أظافرُه دون تخدير، سنوات دراسته للمادة، وخبرته، ذهبت هباء - هذا تصوره -، قال سرحان مظهرا الأسف:

خُسارة، سينهون لمتعاقدي الإسلامية مثلك، ويكتفون بالوطنيين.

حاول كفَّ النظر عن أية سخافات، متذكرا فضلَ الإسلامية عليه؛ حيث ذكَّرته بسورٍ نسيها، وبأحكام عديدة لازمة لأي مسلم.

لم تكن السخافات أبدا، في احتمالات الإنهاء؛ لديه - الآن - أكثر من مبرر للعودة، لكنها نظرات سرحان المتشفية، ألَهُ يدٌ في إبعاده عن مادته، خشية ازدياد معلميها، ومن ثم الإلغاء أو النقل لبعضهم؟

'أنكر بخيت علمه، بمسألة الإنهاء هذه، قال:

سينصفك تقريري للإدارة، كما أنصفك تقرير موجهك، مع اختلافكما، حول مسألتيّ الحفظ والفهم؟

سأل متحيرا:

من أين يأتي سرحان بهذا الكلام؟

لم يُبدِ الشبابُ دهشةً؛ إضفاء الخطورة والسرية، طريقته الأثيرة، قال خليفة:

أنا رياضيات، ودرَّسْتُ التاريخ أول سنة، كانت - والله - أحسن سنة.

...

يجتمع ـ منذ مدة ـ كامل وخليفة وحربي، في معيشةٍ واحدة، تتخللها طقوس خاصة...

حضر معهم افتتاحاً، لعلبة زيتون أخضر، استكان أمام كل منهم، طبقٌ صغير وملعقة، امتدتْ ملعقةُ كامل، داخل العلبة المفتوحة، خرجت بزيتونة وحيدة، أنزلتها في طبقه، وهكذا فعلت ملاعق الآخرين، حتى فَنَتْ حبّاتُ الزيتون، إلا زيتونة واحدة.

عادت ملعقة كامل، لتدخل برأسها داخل العلبة، امتلأت بماء الزيتون المالح، و صبّته في طبقه فوق زيتونه، وكذلك فعلت الملاعق الأخرى، حتى جف الماء في قعر العلبة. وَجَّهَ حربي لخليفة اتهاما بالطمع، مُدَّعيا أن ملعقته أكبر من غيرها، ... وبقت مسألة تقسيم الزيتونة الباقية قائمة.

أدركتْ وجه الضيف سخونة لافحة، مع عدم ضلوعه في القسمة.

ينفرد عصام بعيشته، أفتى سرحان بأن انفصاله عن الجماعة، جاء لاختلافهم على نصف ريال، عند حساب الطعام المشترك، لازالت بينهم ـ مع ذلك ـ، مراتع للاختلاف، عند حساب وقود السيارة الشِّرْك، وماء الغسيل المجلوب ـ بالأجر ـ، من بئر عوض راجح.

...

تأملَ عبد البديع دخان سيجارة حربي المرتجف، استعاد تقديم كامل له ـ عند أول لقاء ـ:

ـ حربي مدرس إنجليزي قاهري.

ـ قاهري؟ كيف؟!

ترن بأذنه ـ إلى اليوم ـ، كلمات سائق السيارة السوداء (أجرة القاهرة)، كان ـ هو ومعارٍ آخر ـ في الطريق، إلى الكشف الطبي بمستشفى الصفا، قال السائق متهكما:

إعارة (أيه) يا محترم؟

المدرس هنا يلهط الشهد (لهط).

أضاف مقهقها:

بنتي مدرسة (فيزيا)، والله ما يكفيها (عَشَر بواكي) شهريا، ...إعارة ؟!

يومها، أسرع بإنزالهما، متنازلا عن أجره، دون أن يخفف من حِدَّة القهقهه.

أين أنت يا حربي، من هذا الحوار؟

...

انتظار الرسائل يجهده، إنها مِدادَه، للحروف صارت معان جادة، وللكلمات جدَّتْ دلالات، تنفذ إلى العظام، كلمة يرقص لها القلب، وأخرى تبعث مغصا بالأحشاء، تعيد حواسه القراءة، تفند الأخبار، تحيك الجُمل، لتصنع ردا مناسبا عليها، تحمل الردود روائح الشوق.

بالصفحات يدفن رأسه، مستجديا الونس، من أصدقاء، لم تقع عينه على أكثرهم، منهم من يمارس لعبة الحياة لايزال، واثقا من حتمية الانتهاء، ومنهم من أنهاها بالفعل دون اكتراث:

تولستوي، حقي، ساراماجو، إدوار، كامو، كالفينو، عبدالصبور، شتاينبك، جاهين، كافكا، سونيكا، منيف، هيسّة، تامر، هيلتون، وكل (ستينيّ) مصر - دون استثناء - ...

آه أيها الخالدون، كيف يمكن للحياة، أن تستقيم بدون فيضكم؟

متى تثبت قدمه، وسط نهر طريقكم، حيث الفناء الخالد؟

يستعيد أفراحا في صدره، مع أول قصة له، على صفحات مجلة أدبية، يومها لم يكن من أفق يحتويه، تُرى هل يكتمل القمر؟

...

تخلو ميزانية الجماعة، من أيّ بند للصحف، وشراء إحدى روايات الهلال - التي تصل المحافظة أحيانا - بخمسة عشر ريالا، درب من الجنون، ...

تعجز أجهزة (الراديو) العادية، عن التقاط الإرسال...، ليس أمامه إذن، سوى هاتين القناتين، للتلفزيون سيء الصورة، رغم (البوستر) الرهيب - على قول طلعت - :-

برامج نسائية استهلاكية، نقْلٌ بالساعات لسباق خيول الأمراء، تفاصيل التفاصيل لزياراتهم وتنقلاتهم، طوابير طويلة لا تنتهي، للراغبين في تقبيل أكتافهم، تدور بين الجماعة المناقشات، حول الفوارق بين العديد من الأصحاب:

أصحاب السمو الملكي، أصحاب السمو فقط - بدون ملكي -، أصحاب السعادة، أصحاب الفخامة، أصحاب الفضيلة، وكذلك بين المحافظ، والمحافظ بالنيابة، والأمير الحكومي، والأمير القبلي...

...

من بيشة، تناوب الرفيقان استجلاب (المقاضي)، لكلٍّ صفحته بالدفتر،

علاوة على حساب البقالة المفتوح، بالإيجار يصعد سرحان، يغيب، يقول مروان في غيرة ظاهرة ـ:

أرزاق...، ناس فوق ـ تصعد إشارته نحو المرتفع ـ، وناس تحت ـ يهبط بها عند الجالسين ـ.

ترميه عينا طلعت بخطّين من حقد.

...

تزيد الدّيون عبد البديع حرجا، إلى قسط أجهزة البيت، ونثريات أخرى، أُضيفَ قسط الإيجار، قال سرحان:

ابسط ياعم، غدا موعد عبيد الصراف، لك راتب شهرين، وبَدَل سكن، مع بَدَل تأسيس.

عصر الغد، قال عبيد ـ الذي جاءهم بالسكن ـ:

لا شيء للمستجدين هذه المرة.

جَرَتْ أنامل الأول، على مستحقاته بالعَدِّ، تحاشَى مواجهة المستجد، انفلت إلى غرفته، عاد منفضا يديه، كمن انتهى من قضاء أمر خطير، وفعل الآخر فعل سابقه، ثم تتقابلت أكفُّهما مُصَفِّقَةً، تصفيقة الابتهاج.

هل كان يتوقع، أن يعرضا عليه، سُلْفةً آجلة؟

يجوز...

أعاد ـ في نفسه ـ ترديد مضامين أراحته، من آخر رسالة قادمة:

المبلغ المتروك لأسرته لم ينفد بعد.

لابد من النزول، في أجازة رمضان القادمة ـ هذا رجاء ـ.

أجازة رمضان!

كيف، وإقامته لم تصل بعد؟

يُسلّم المتعاقد ـ أول قدومه ـ جوازه بالإدارة، يستعيض عنه ـ على مهل ـ بإقامة محلية، وعلى الراغب في النزول، إعادتها إلى الإدارة، مع مائتي ريال رسم تأشيرة.

هكذا فعل الزملاء.

حمل أحد الصباحات القلقة ـ أخيراً ـ، خبر وصول إقامته، أسرع بإعادتها مع الرسم المطلوب،... وطفتْ على السطح عقبة كئود ـ مصاريف الأجازة ـ، ماذا لو تخطاه الصراف مرة جديدة؟

...

إلى بيشه رحل طلعت، سيرسل حوالتين بنكيتين إلى مصر، إحداهما لسرحان باسم امرأته.

...

سأل سرحان كالمخدَّر:

ـ ما رأيك في البنات؟

أجاب مترددا:

ـ أية بنات؟

كوَّر يديه كمن يتحسس برتقالتين، قال:

ـ (وظاويظ) الثانوي في مصر، ...

ـ نعم؟!

ـ لعِلْمَك أنا كنت مدرس بنااات.

ـ ...

ـ أنا فاهم إنك (حويط)؛ عارف كل شيء، حتى موضوع طلعت مع حُرْمة ...

...

لابد للحذر أن يسود ـ يعلم عبد البديع ـ، الاعتراف بالمعرفة ضد الحذر، الأمور ـ تقريبا ـ لا تخضع لقوانينها المنطقية، فصاحب الدبلوم يُقَيِّم الجامعيّ، وعديمُ الخبرة قد يحكم على الخبراء، و طلعت ـ المؤذن ـ يعود من سهراته، ليأخذ دشا باردا، و ينام ساعة، قبل أن يبث آذانه الجهوري، و سرحان الحافظ لأسرار الكون ـ كما يوهم الجميع ـ، تبدو سيرته مع زهرة، امتدادا لسيرته مع تلميذاته بالثانوي، وهذا حربي، أكبر سبَّاب لأديان المتعاقدين، أكبر جبان أمام الوطنيين.

والأمير...

وماجد، و...

حتى خميس، تدور حوله ـ في الخفاء ـ الأقاصيص، عن استباحة بيت العنود له جسديا، خصوصا في العطلات، إذ يصبح الذكر الآدمي الوحيد المتاح، ...

هؤلاء وأشباههم، يصعب الاقتراب من محاريبهم، إنهم ـ فقط ـ يملكون حق تقييم البشر، هم مَن أصَّلَ لطقوس الريبة، إذ تجد نفسك، على حافة الخطر تحيا، ترتجف ساقاك خشية السقوط.

يحادث نفسه، غير غافل؛ لابد للرأس ألاّ تستقر فوق العنق، لابد للذهن أن يدور، وللصمت أن يطول، تأملا في ممارسات حياتية للديرة، قد يفاجؤك

حنشٌ بالمرور على قدميك، أو الالتفاف حول عنقك، قد تفاجؤك لدغة عقرب، من تحت غطاء سريرك - حتى والعلب الأربع تحت قوائمه -، ربما تتلصص عليك العيون، عيون العنود ربما، أورُسُلِها، من خلال سلك الشباك، وأنت ممدد خالي البال.

...

هل يتعمد سرحان - مؤخرا - الانفراد به؟

بالمزرعة يشاركان خميسا ريَّ النخيل، وأحواض الجرجير، يأخذان (غُطْسين) بفسقية الماء.

يكرر:

أنا لم أتوان عن نهر طلعت، على تلك العلاقة، لكنه كلما حاول الامتثال، فشل في مقاومة رسولها، الذي يكون عادة أحد ولديها، أو حتى زوجها.

لا يتوقف بحثه عن منفذ، يبرىء ساحته من التخاذل، يختم كلامه - كل مرة - قائلا:

أنا أفعل ما عليّ، وأنت فاهم.

عندما يداخله الاطمئنان على موقفه، ينتقل محاولا انتزاع عبارات العذر لطلعت، ملقيا باللوم على (الكلبة)، ورَجُلها، اللذان يمتصان دماء رفيقه؛ يجلب مقاضيهما دوما، يأخذ ثمنها مرة، ويمتنع مرات.

يتمسك عبد البديع، بحتمية الترفع عن المخازي، فالأمر هنا لا يتعلق بالمخطيء وحده، بل يتجاوزه إلى كل المصريين، الذين لا يفرطون إذن - كما يرى الوطنيون -، في أيَّة فرصة للخيانة أوالدياثة، متى جَرَّتْ فائدة...

هل يُعَدُّ هذا كلاما استهلاكيا؟

...

اتخذ سرحان مع رفيقه، ما يشبه الخصام، لم يجتمع معه على طعام ليومين، قال:

لا بد أن يقاطع بيت نصار تماما.

في العصر، اقتحم طلعت عليه غرفته، لم تمض ساعة، حتى خرجا متشابكَيّ الأيدي، انقطعت رِجْلُه عن الذهاب لبضعة أيام - هي أسوأ فتراته المزاجية ....، بالمدرسة لوحظ انفراد نصار به، فاجأهم مساءً بالحضور، مرتديا ثياب البدو، قال:

مسّاكم الله بالخير.

فزَّتْ قوائم طلعت، ردد باسما:

مساك الله بالنور.

لامتهم كلماته، على التقصير في حقه، إذ كيف لا تتزاور الأرحام؟... ولم تنتقل له قدم، إلا ساحبا إياه، كطفل يتعلق بوالده مأخوذاً.

اكتست سحنة سرحان بالاحتقان، قال:

أرسلته بنت الحرام، ...

ارتجف بدنه، اجتاحه سُعال مزلزل، أتبعته صعوبة في التنفس، وانقضت الساعات، في تبديل الكمَّادات الباردة، على جبهته المتقدة.

همس كامل مستخفا بالأمر:

هذه حركات...

أغلظَ القسمَ، بأن سَعْي سرحان ـ نفسه ـ لم يتوقف، ليفوز بحرمة نصار، لولا تفضيلها لطلعت ـ المطيع ـ عليه، فضلا عن الحقد المتبادل بينه وبين زوجها، لأسباب تتعلق بالسيطرة، على كل من بخيت والأمير، فالصِلةُ بينهم جميعا، محفوفة بالغموض، والتأويل، الذي لا يخلو ـ غالبا ـ، من سيرة الحريم.

...

يعتلي الأمير كل عصر، ربوة حجرية على طرف المرتفع:

عن يمينه، تقع زهرة ببيتها، قَبل المزارع، والوادي.

وعن يساره، تقع الإمارة، والجامع الكبير، قَبل بيت نصار بحُرمته.

تخضع تلك العادة للفتاوى:

يرى الشباب أنه بذلك، يمتلك زماميّ المرأتين.

قال سرحان ـ بعد أن ضَيَّق حدقتيه ـ:

لا مجال للظن السيء، جلوس الأمير ـ الصديق ـ هكذا، أمنيٌّ بالضرورة.

...

الديرة ـ كناسها ـ، لا تكُفُّ عن تقليب فصولها الأربعة، حتى في اليوم الواحد:ـ

دبَّتْ الهوازع بالكون، هاج الغُبار، صار كل شيء مصفوقا، تتابعت الرعود، انتشر وميض البرق بالأجواء، هلَّ البِشْر على قسمات خميس، هتف:

(جانا) المطر يا ولد.

وانفتحت السماء.

انتاب عبد البديع الذعر؛ ترتبط ذكرى المطر لديه لاتزال، بالبرد،

والطينُ، الذي يملأ شوارع قرى مصر، وسطوحها، يعوق المسير، ويعطل المصالح...

من ناحية المسجد الصغير، اندفع سيلٌ جارف، انفتح الباب الجانبي، فاضت الرُّدْهة الكبيرة بالماء، تَوَاكَبَ الصوت الهادر، مع كلمات سرحان:

زد يارب زد.

سنواته الخمس بالديرة، نمّتْ لديه موقفا جديدا نحو المطر، يقول:

المطر هنا عُشب وزهر، وماء غسيل شبيه بالعذب، ووفرة في علف البهائم، ورخص للأسعار.

لم يمض من الوقت القليل، حتى عادتْ للكون سحنته؛ صمَت كلُّ شيء، و تكفلت الرمال باحتضان الفيض.

ربت خميس على كتفه، قال:

بَذْرِي على موسم المطر، هذه نفحة ربانية، من أجلك يا شيخ عبده.

أربكته كلمة (شيخ)، الذي يرى أن خميسا ألصقها به، دون مبرر.

...

زيارات عيَّاض يومية، تنتهي ـ غالبا ـ بهرولة سرحان في ركابه، تتقضي الساعات، قبل أن يعود سائقا براهين الغياب ـ دون أن يكون ملزما ـ، يراها سامعُوه أدلةَ إدانة، إذ لو لم يكن ـ أمام نفسه ـ مُدانا، ما احتاج لبراهين البراءة.

...

ذات أربعاء ـ ظُهرا ـ، حلَّ شخص لم يره من قبل، ظهرت أهميته من حرارة استقبال سرحان، الذي قدمه بانفعال:

تُركي أخو عيَّاض الكبير، يعمل بالعاصمة ويقيم بها.

مع الشاي قال تُركي:

العشاء الليلة عندنا، ... قولوا تم.

رَدَّدَ سرحان ـ دون مشاورة ـ:

تم... تم.

هيئة التدريس ـ بكامل عدتها ـ حاضرة، اندس نصار وسط الوطنيين، تلتهم كتلة الشباب، بالقرب من الباب احتل سرحان مجلسه المفضل، تبادل نظراتُه في الداخل ـ على مايبدوا ـ، نظراتٍ أخرى تتابعه، إلى جواره انحط طلعت، وعبد البديع ـ المكتفي بالفُرجة ـ؛ كل ما يظنه صحيحا، في مثل هذه المحافل، يكشف الرفيقان له ـ مع أول انفراد به ـ عن خطئه.

فثت - أولا - كميات كبيرة من القهوة، والتمر، والشاي، والذكريات المتبادلة، والنوادر، والترحاب، ...

صحنان كبيران - هذه المرة -، بخروفين كاملين، الأيدي كالخطاطيف في اللحم، مهارة رفيقيه غير مسبوقة، الأكل باليد يربكه، بدا عيَّاض مشفقا عليه، أتى له بملعقة، ودفع أمامه ببعض اللحم.

بالبيت، لم ينسيا لومه مرتين؛ مرة على (طرقعة) كفّه عند المصافحة، ومرة على قبوله الأكل بالملعقة.

تسلّمَهُ حتى صبيحة الغد، دور إسهال، مصحوبا بقيء عنيف، فشلت ثمار الليمون، وكل الحبوب، في إيقافه، ...

لم يُلق طلعت بالا.

حذر سرحان الآخرين من الاقتراب، قال:

هذه أعراض كوليرا.

ارتج خميس قليلا، قبل أن يتجاهل التحذير.

هدأت نوبة القيء، تباعدت ذهباته إلى الحمام، لم يغب عن ذهنه - في ذروة النوبات -، شريط تخيلي، لعودة جثته إلى مصر، ووقع ذلك على مستقبليها، يتوازى ذلك مع شريط آخر، لمراسم دفنه بالديرة، في حال فشل العودة.

قال خميس:

احمد ربك.

قال سرحان متجاهلا:

أنت معزوم خارج الديرة، بخيت عازم الجميع، ردا على عزومة الأمس.

قال عبد البديع:

يتحدثون عن ثارات قديمة بينهم، وعداوات، و يتعازمون كأن شيئا لم يكن؟

ما عليك أنت، أنت معزوم والسلام.

بخيت لم يبلغني.

لكنه كلفني بدعوتك، وضيف الكريم يعزم.

لم يكن الأمر مقنعا، قال معتذرا:

الرجل كريم، لكن أنا مُتعَب.

لا يُعرف بالضبط، ماذا قيل لبخيت، كصيغة لاعتذار عبد البديع، حيث ظلتْ ملامحة واجمة - لمدة طالت -، كلما تواجها معا.

علق خميس على اعتذاره ـ مقلدا مستمعي القصائد من البدو ـ قائلا:
صَحّ لسانك.
هَمَسَ كمن يفشي سرا:
ـ الحريم فوق يَعِزُّونك.
: ...
ـ (يقولون) إنك تستخدم الطريق الخلفية ، وإذا لمحت حُرْمَة ، لا ترتفع لك عين.
لبيت المرتفع طريقان، إحداهما أمامية عريضة ، تسمح للسائرين برؤية مَن بالداخل، والأخرى خلفية ضيقة ، يفصلها عن ظهره منخفض صغير، وهما تلتقيان مرة عند صعود المرتفع، قرب السكن والمسجد الصغير؛ ومرة عند هبوطه ، في اتجاه المدرسة والجامع الكبير والإمارة.
بددتْ الكلمات مخاوفه ، من فعلهن المنتظر ، ردا على طلبه من البنت ـ يوم طلبها للكبريت ـ ، عدم القدوم إلا في وجود الزملاء ، قال:
ياعم خميس، خلينا في حالنا.
تهلل وجه خميس ـ لا يُعرف لماذا ـ ، قال:
العنود ست جبَّارة ، و سعد مشعل لا يرد لها طلبا...
شرع لسانه في الحكي، دارت حكايته الأهم، حول متعاقد قديم، خاض في سيرتهن ـ مستخفا بالتحذيرات ـ ، فتم نفيه إلى ديرة أبعد وأصعب ، ...
أين أنت يا مروان، وأين لعنائك لتصبها على أبي مشعل؟
...
قارَبَ الشهر على الفناء ، لم يغب عبيد الصراف عن باله يوما ، أيمكن أن يسعفه ، أم تُراه يتسول مصاريف الأجازة؟
حاول التلميح للآخرين بالحاجة ، بدوا وكأن اتفاقا سريا تم بينهم، حججهم واهية ، لكنها بنكهة قاطعة ، قال بخيت:
انتظر حتى أتسلم راتبي.
لم يكن ليظن ـ آنذاك ـ ، أن حاجة الوطنيين، ترتبط أيضا بالراتب ، كالمتعاقدين.
بدا خميس وكأنه يعمل دون أجر.
صحبه إمام إلى طرف الديرة ، قال بأسف:
أنا (يا دوب جاي) من مصر ، خلينا نروح لسيد المنصوري ، عامل صاحبي.
مالا على محل جانبي ، لزيوت العربات، وقطع الغيار البسيطة ، عديم

الزبائن تقريبا، لم يستغرق التعارف لحظات، لسيد المنصوري كتفان ممتلئان، وملامح شاميّة، وحديث هادئ كهدوء حركته، داخل حفرة ضيقة، أشعل كسرات من خشب متفحم، صنع الشاي بعلبة سابقة للفول المدمس، صبّه في (برطمانات) مختلفة الأحجام، قال - بعد علمه بالأمر -:

معي مائتا ريال، (بَس) تعطيهم لأم العيال، في بلدنا (طناح) لما تنزل.

أضاف بأسى - وهو يناوله (برطمان) الشاي -:

يعني تنزل على أهلك في رمضان، (إيد ورا وإيد ...)، (مفيش) حتى (لعبتين) للعيال؟

...

أقبلتْ امتحانات النصف الأول، ينفرد كل ملاحظ بلجنة، إلا عبد البديع، دائما ما يصاحبه زميلٌ آخر، يبدو سرحان كرئيسٍ للعمل، أجاب - ردا على استفساره -:

التوزيع من اختصاص بخيت، والأمر يتعلق بانضباط اللجان.

ألهذا الحد يفقد بخيت الثقة به؟

كم من لجان قادها، كم من طلاب له لا يحصون - أطباء، مهندسون، قضاة، أدباء، معلمون -، أقلهم يفوق (دبلوم) بخيت نفسه، ...

قد يبدو الأمر بسيطا لدى البعض.

قال بخيت - باستغراب -:

الأمر موكل لسرحان.

أشار خليفة، بضرورة (حرق دمه) بالمواجهة، شريطة أن يكون العتاب، بقدرٍ لا يُثير ضغينته.

رأى كامل ألاّ يُعاتَب اللئيم.

...

يبقى المعلمون - بعد الامتحان - بضعة أيام، لإظهار النتائج، تمنحهم المدرسة بعدها إخلاءات الطرف، تسلمهم الإدارة - بموجبها - الجوازات بتأشيرات السفر.

جهّزَ بخيت الإخلاءات، لم يلن لتوسلاتهم، كي يمنحهم إياها مبكرا، فيسبقوا غيرهم إلى الإدارة.

قبل الموعد بيومين، لفت الانتباه، انهماكُ سرحان في تجهيز حقائبه، قال:
لديّ مشوار، و قد لا أعود.

أقبل بخيت ـ عصرا ـ بسيارته الجيب، بادرَ عبد البديع بالقول:
سأوصل سرحان لأقرب قرية، ومن هناك يكمل إلى بيشة.
أخرج ورقة من جيبه، قال:
هذا إخلاؤك، لو بغيت صُحبتنا جهِّزْ حقيبتك، قبل أن أعود.
وجّه وجهه نحو الداخل صائحا:
معك ربع ساعة يا سرحان.
بعد انصرافه، أعاد عبد البديع ـ متلائما ـ، سؤال سرحان عن وجهته.
أجاب محتقن الملامح:
مشوار يا أخي، مشوااار ... أُف.
لوَّحت أصابع المتلائم بورقة الإخلاء، قال ـ فيما يشبه الصفعة ـ:
بخيت أخبرني، وطلب مني الصُّحبة لو بغيتُ.
ركب وجهه الغم، تحرك لسانه داخل فمه الجاف، دون كلمة واحدة.
منشغلٌ عقل عبد البديع طوال الطريق، بنفقات الأجازة، حاول إقناع نفسه، بإمكانية تدبُّر الأمر في بيشة، بعد وصولهم إلى القرية المقصودة، اكتشف نسيانه للإخلاء بغرفته، وعليه أن يعود.
أطلق سرحان ضحكة ساخرة، وبدت في عينية نظرات الشماتة.
بالديرة كانت المفاجأة؛ سيارة عبيد الصراف، أمام باب العنود قابعة.
لم يمض القليل، حتى أقبل عياض مستدعيا.
اهتز رأس عبيد، قرأ من كشف بيده ـ:
عبد البديع:
راتب شهرين، وبدل سكن.
ألقى إليه برُزمة الريالات، قال:
عد هذه.
...

بين يديه صارت مستحقاته، و(يوم سداد الدين عيد):
أبدى بخيت ـ أول الأمر ـ رفضه للخمسمائة ريال، وحصَّلَ طلعت كل متعلقات شراكة البيت، فيما اعتبر سيد المنصوري المائتي ريال، أمانة واجبة التوصيل، لامرأته بطناح...
قبضت كف نصار بعد ـ التظاهر بالرفض ـ، على ريالاته الثلاثمائة، ...
سأله عبد البديع:

أية خدمة من مصر؟

ترددت الكلمات بين أسنانه، أجاب:

نصف صفيحة (سمن) بلدي.

لا يرى نصار مصر، إلا كل عامين، يقول:

مصاريف على الفارغ، أولادي تحت إبطي، والخير زايد، محروق أبو النزول.

لا يشاركه الرأي، سوى طلعت - الذي قرر البقاء -، ردد كامل - معلقا على بقائه - المثل العربي:

" خلا لكِ الجوُّ فطيري واصفِري".

كان طلعت - فور تحرُّك بخيت برفيقيّ سكنه -، قد أبلغ الشباب إيغالا في كيدهم.

انتابتهم ثورة كبيرة، خصوصا على عبد البديع - صديقهم -، الذي تأخر عن إبلاغهم بما يعلم، ولم يصفحوا، إلا بعد تأكدهم من اقتصار علمه فقط، على دقائق معدودة قبل التحرك.

بدت جلستهم - الأخيرة - غريبة؛ فوق هضبة بيتهم، بفضاء أمام الباب، تراصَّتْ بعض الأحجار، على كل حجر جلس أحدهم، رابطا حول عنقه بذراعي قميص قديم، يتدلى فوق صدره، أمام كل جالس، كمَّنَ آخر على ركبتيه، في يده مقص صغير، ومشط بلاستيكي.

قال كامل (ذاعكا) عينيه:

هذه حلْقة النزول.

التصق الشعر بعرق الأذرع العارية، تناثر حول الأنوف والعيون، تعددت مرات التفل و(الدعك).

تبادل الأفراد الأدوار، واتخذت رءوس الجميع - بعد الحلاقة -، هيئة باذنجانات مبقعة.

تمخط حربي، بطرف القميص المتعلق برقبته، قال بقرف:

نحن أولى بالعشر ريالات ثمن الحلقة...، تحب أحلق لك بخمس ريالات (بَس)؟

ممنون ياسيدي، سأحلق في مصر إن شاء الله.

...

سمح بخيت - بعد أن وسَّطوا الأميرَ -، بالمغادرة في الغد، ملأتْ الحقائب حوض سيارتهم، تولى خليفة القيادة، إلى جواره ركب عبد البديع - لقاء مائة ريال

،، و كامل ـ أكبرهم سنا ـ، فيما اعتلى الآخرون الحقائب.

تتجاوز العجلات أشباه الحُفَر بصعوبة، الآلةُ سلحفاة كسيحة، قال كامل مُمَازحا:

سنصل الإدارة، بعد انتهاء الأجازة، ها..ها...

لم يكد يتم ضحكته، حتى عم الضجيج، والتصقت السلحفاة بالأرض؛ بعد انفلات إحدى العَجَلات، بجزء حديدي.

قال عصام متهكما:

(هنوفر) فلوس السفر، ونقبض من عبد البديع (كمان)، هيء.. هيء...

صاح كامل:

انكتم يا عِفِن ياهو ـ على وزن نتن ياهو ـ.

دارت بعض القفشات.

كالَ حربي السَّبَّ لأم السيارة، تحلق ذراعه بذراع خليفة، توجها نحو أقرب خيمة تلوح، لم تمض ساعة حتى أقبلا في صحبة أحد البدو.

همس كامل في أذن جاره:

حربي كان يعطي درسا لابنه.

احتج عصام، على ارتفاع أجر البدوي، قال:

هذا ضعف ثمن سيارتنا هذه.

تجاهل البدوي احتجاجه، نظر إلى تلك النائمة في الخط، قائلا:

سأجرها عند خيامي، لحين عودتكم.

بالطريق تبلور ما يشبه الاتفاق، بين عبد البديع و حربي وخليفة، على اتخاذ رحلة (جدة : السويس) البحرية، واتفق ثنائي الجنوب ـ كامل وعصام ـ على رحلة (ضبا : سفاجا)

...

بالقرب من إدارة التعليم، فاجأته (يافطة) طالما فتش عنها، أول أيام القدوم:

(مكتب آل دبيس للخدمات).

كم من آمالٍ بنيت، على تلك الرسالة، الحاملة لهذا العنوان...

عند أول طَرقة للباب الزجاجي، انتفض ذلك الجالس في المواجهة هاتفا:

(وينك) يا رجل؟

نفس البدن الممتلىء الأسمر، الذي ملأتهما ـ هو وزميله عادل ـ مقابلته

الأولى، بمشاعر متناقضة يصعب تحديدها، بدا وكأن رجلا آخر تلبسه؛ أخَفّ حركةً، أطلق لسانا، لا تنقصه أبدا بلاغة الحفاوة.

ماذا جرى؟

هل أفاق من غفوة طويلة؟

خلف مكتب كبير يجلس، يتحرك مقعده في كل اتجاه، على اليمين يتجاور هاتفان، مع (فاكس) حديث، وعلى اليسار خازنة ودولاب، وبرادة ماء، تغوص القدم في وبر سجاد الأرض، كما تغوص الروح في هواء (التكييف)، المرطب لحرارة الجسد، المخزونة من نار شمس الشارع.

- (وين) رحت؟.

- ديرة في بطن البَر.

انحنى - كمن لم يستمع -، أخرج من تحت المكتب، كرتونة متوسطة، قال:

ممكن؟

- ...

- فيها شفاط للمطبخ، و(وحتتين هدوم للجماعة)، ممكن توصلهم؟ - قالها وهو يمد يده بزجاجة البارد ..

- ...

- العنوان مكتوب عليها:

الوسطاني / كفر سعد / دمياط.

- ألستَ من رأس الخليج؟

- فعلا، لكن تزوجت من الوسطاني، وساكن هناك، ... تعرف تروح؟

- طبعا، ابن عمتي - الله يرحمها - رئيس السنترال هناك...، السيد الشريف، تعرفه؟

- السيد؟ آه ...، على العموم، سلم لنا عليهم يا بطل، تروح وترجع بالسلامة.

جاء هذا وكأنه إيذان بانتهاء المقابلة، لماذا لم يرفض حمل تلك الكرتونة؟

بالإدارة عاد ليجتمع بحربي وخليفة، ليلة كاملة استغرقها أتوبيس (النقل الجماعي)، ليصل إلى جدة، استولى النعاسُ على زميليه، لم يفارقهما، إلا مع كل توقف باستراحات الطريق، أحدها - التوقفات - كان لسحور أول أيام رمضان، أبت عيناه إلا أن تبحلق، في كل عتمة تطرأ، أو ضوء يلوح، لمدينة أو

ديرة مجهولة.

الميناء يموج بالبَشَر، كل الآذان مفتوحة، علّها تلتقط خبرها المنشود . وصول السفينة المسجلة بالتذكرة .، الساعات مملة، تجمعات، تفرقات، طوابير، عرق، مشاحنات، بدا السفر كنوال بعيد، لم ينقشع الضنك، إلا بوصول سفينتهم، التي بدت وكأنها البلد، قطعتْ بهم قرابة الخمسين ساعة؛ نوم وصوم و...، و توهة...

الأمواج برأسه أعلَى وأعتَى، من أمواج البحر، أكثر اتساعا من سطحه، أيتها النوارس المحومة، كيف تظلين هكذا طوال الوقت؟

لم يكن الأمر أقل صخبا عند النزول، على الرصيف يتنادَى الناس، أهل خليفة ـ السويسي ـ في انتظاره، تصافحا ـ هو و زوجته ـ بفتور عجيب، انفردت هي بحربي، في حديث حماسيّ ممطوط، وانصرف هو إلى حوار فاتر مع أُقاربه.

تردد آذان المغرب في الجنبات، تكونت بُقَعٌ عشوائية للإفطار، وبقع أخرى للصلاة، تعرفوا على الحقائب. فيما يشبه الإعجاز .؛ آلاف منها انسحبت من بطن السفينة، إلى ساحة مترامية نصف معتمة.

تفرق الجمع على مهل.

مع السحور جاء وصوله، كان بدن أبيه ـ أول من قابله ـ أكثر نحولا، وحضن أمه أكثر دفئا، و...

مضت الأيام الرمضانية، كأحلام في جنة أسطورية، قبل أن يحمل العيد ـ يوم السفر ـ، أكثرَ المشاعر تناقضا؛ كيف يغادر أحضانا بدت مستحيلة، إلى فكيّ الرحيل من جديد؟

تدفعه أيدي الجميع داخل السيارة، مُحمِّلينه ـ إذا آثر البقاء ـ، وزر ضياع فرصة ثمينة، ليرتقي بأولاده سُلّمًا حياتيًا أفضل.

خمس توديعات دامعة لأبيه، هل تستشرف نفس الأب ـ الصافية ـ، قبَسا من وقائع مستقبلية غامضة؟

لم تستطع ثرثرة مصاحبيه إلى القاهرة، إبعاد شبح سؤاله الأخير عن ذهنه، سيتخذ وحيدا ـ هذه المرة ـ رحلة:

(سفاجا: ضبا) بحرا، و (ضبا: جدة: بيشة) برا، الأسهل ـ كما نصح البعض

١١

غادر الاتوبيس الفاخر قلب المدينة المزدحم، سيبدأ حالا مسلسل الخواءات، خواءُ الطريق إلى سفاجا - على ساحل البحر الأحمر - جنوبا، كخواء طرق المملكة الطويلة، وخواء النفوس من الفرح، جَرْيُ العجلاتِ على الأرض، كدمع المكلوم إذا هَطَل، لم تتوقف بعد محاولات قلبه، لإعادة الانضباط إلى دقاته المنفلتة.

فوضى الأرصفة بميناء (سفاجا) غير مسبوقة، إلى ميناء (ضبا) على الشاطيء الآخر سيتم العبور، نفس اتساع البحر، نفس الأمواج الهادرة، خارج كيانات البشر وداخلها، العيون زائغة، ونادرا ما تتفتح الأفواه، تبدو الكلمات (أكلاشيهات) محفوظة، لماذا؟

هل من مُجْبِرٍ لهم على الرحيل؟

أليست رحلاتهم هذه من اختيارهم؟

لماذا - إذن - تتخلى نفوسهم عن الفرح؟

...-

بدت استفهاماته كتدريب ذهني عقيم، فشل في قبول فكرة التسامح مع نفسه، إذا تسلل إليها الفرح، بحث بداخله - ليتَلَهَّي - عن أية خواطر تلوح، التقط - من الماضي القريب - عيون مودعيه المسكونة بالحزن، رغم إظهار بعضها المفتعل للشفقة؛ لماذا لم تحاول أيٌّ منها، التلميحَ له بإمكانية البقاء - مادام الأمر يبدوا محزنا -؟

قد يرى البعض أن القرار قراره، خصوصا بعد أن ذهب - أولا -، وعايش جزءا من التجربة، ... لا تزيده رؤيتهم هذه، إلا تعجبا من أمره:

ما الذي جعله - هكذا - منزوع الإرادة؟

ربما كان فكاكه - هكذا يتصور -، على يد كلمة لأحدهم أو...، لا تفارقة أبدا - حتى والأمر كذلك -: كل الآمال العراض، وسنوات الانتظار، التي سبقت تلك الرحلة منذ البداية، بل ويتأمل - حتى اليوم - تلك المشاعر الآملة، في

عيون المنتظرين لدورهم، يهمس لنفسه:

إلى أي مدى يمكن للأمور، أن تتغير على الإنسان؟

تدفعه أيديهم - بإصرار - ليعاود الكَرَّة، أيُعقل أن يقعوا جميعا، فريسة لوحش المخادعة؟

أم أن معيار حكمهم اقتصر - فقط -، على جانب واحد - المادي -، ومن أجله يهون حتى الفناء؟

إذا كان الأمر كذلك، فما قولهم إذن في عاملٍ، يتقاضى - كراتب -، سدس معلم متعاقد؟ ألديه أسبابه المقنعة، لارتكاب تلك الرحلة؟ أم أنها استحالت إلى حالة مَرَضية، يوشك (فيروسها) أن يستولى عليه أيضا؟

...

برُكنٍ فوق سطح السفينة تكَوَّم، يرمي بصره، فلا يقع على أيٍّ من الشاطئين، إلى جواره نشب هياج نادر، بين كومة من عمَّال، شركاء في علبة (سلمون)، أخرجه الهياج عن توالده الاستفهاميّ السابق، بمزيد من (هلاميات)، لا صدى لها في الواقع...

...

من ضبا إلى بيشة، تتم - عادة - وقائع تقليدية.

...

بين فندق الزهراء، ومكتب آل دبيس للخدمات، يدور، في طريقه ليسلم الجزار لفافة زوجته، ردا على كرتونة (الشفاط والهدوم):

خمسة عشر عاما من البعاد، تزوج بأجازة عابرة، وحيد أمه المكفوفة، حملتْ زوجته في ابنهما الرضيع، بأجازة عابرة أخرى، لاتزال أرض البيت الصغير - الذي بناه من العدم -، في حاجة إلى البلاط، وثمة تشطيبات تتطلب مزيدا من السنوات، يحمل اليوم في بطنه أكثر من علّة، وفي نفسه أكثر من شرخ عميق - اعتراف نادر للجزار قليل الكلام -، تُرى هل تُمْهله السنون، ليتم ما بدأ؟

من المكتب هاتَفَ عبدُ البديع مروان - كما اتفق -، تفاجأ - أولا - بصوتٍ نسائيٍّ، بلهجة مصرية، قال مروان - بعدها -:

لقاؤنا أمام الفندق فجرا، لابد من الوصول قبل أول حصة، أنت تعرف سرحان...

ردد:

سرحااان مرة أخرى.

...

لم تكد تلامس حقيبته الأرض - فجرا -، أمام الفندق، حتى التفّتْ حوله عدة عربات، واجهه شرطيان - على قولهما - بملابس مدنية، بادَرَه أحدهما باستفسار عن محتوى الحقيبة، و الآخر عن تحقيق الشخصية، وسبب الوقوف...

انهمك مروان - الذي أدركهم - في حوار معهما، قبل أن يسمحا بالانصراف، ... ومع اقتصار الأمر على ذلك، أحس أن قيدا حديديا، يطوق عنقه.

خريطة الطريق في ذهن مروان واضحة - عكس بدوي المرة الأولى -، عشرات الخطوط المتجاورة، فوق صفحة الصحراء مرسومة، يمايز بينها بسهولة: أيها صلبة آمنة، وأيها هشة، تغوص بالعربات (الهاي لوكس) الصغيرة - كعربته -، يقول:

هذه يقطعها (الجيب) دون عناء.

ضبان، جرابيع، سحالي، ثعابين، قنافذ، طيور، حشرات، تقع تحت البصر، بَكّر بعضُها باغتصاب رزقه من الجرداء، والبعض الآخر في طريقه إلى منَيَمِه، بعد ليل قضاه في مطاردة الفريسة، تلوح - مرارا - وجوه الرعاة، صابرةً خلف النعاج.

...

حول الصوت الأنثوي باللهجة المصرية، قال طلعت:

مروان خرّيج زراعة الأسكندرية، وزوجته أم أولاده مصرية، ترافقه منذ ثلاثين سنة.

تعجب عبد البديع، من استبعاد مروان لذلك، في حديثهما معا، رغم الود البادي أخيرا، والتي من مظاهره:

اتهامه لطه وسرحان باللصوصية، لفرضهما عليه ألف ريال قسطا، للشراكة في أجهزة البيت القديمة، أقسم أنها - جميعا -، لا تساوي ألفا واحدة في (الحراج) - سوق القديم -،... وكثيرا ما دعاه للنزول معه، بدلا من وجهيهما النحسين، الذي نادرا ما تفلت السيارة من (الغريز)، في وجود أيهما.

لماذا يحاول البعض إضفاء قدسية واهمة، على بعض الأشياء؟ ماذا في زواجه من مصرية؟

عشرات الفلسطينيين سبقوه إلى ذلك، أو تأخروا عنه، وكم من مصريّ تزوج بفلسطينية، أو سورية، أو...

...

بعد مغرب اليوم، ساقَ نفسه إلى بيت نصار، فوق كتفه ترقد لفافة (السمن) البلدي - المطلوبة -، خرج أيمن استجابة لأول نداء:

أين والدك يا أيمن؟

أصاب أيمن التردد.

وصلَتْ إلى سمعه - من الداخل -، دعوة نسائية ناعمة، قالت:

ادخل يا أستاذ، ... نصار موجود.

صحبه أيمن إلى غرفة الضيافة، وانصرف.

هنأه نفس الصوت الأنثوي - بنعومة أكثر - على الوصول، سأله عن حال مصر، والمصريين، والأهل.

لحظات و انفتح الباب على مهل، عَبَرَتْه امرأةٌ بيضاء مستديرة الوجه، داخل ثوب أحمر ضيق بنصف كم، يتدلى شعرها الأسود الفاحم، على كتفيها وظهرها.

داهَمَه الدَّهَش، - هذا مما يَندر، في بيئة كتلك -

امتدت يدها لتسلم متمايلة، تغطي وجهها ابتسامة رائقة.

راحت كلماته تتساءل، عن الأستاذ نصار، فيما تردد هي عليه عبارات الاطمئنان، مُخْبِرَةً أن أيمن يناديه من الإمارة، و...

الإمارة؟!

انتفض كقط منزعج، ألقَتْ به خطواته إلى الخارج، متجاهلا كلماتها المتعجبة من أمره، والتي تطالبه بالانتظار، عاقدا العزم، ألا يأتيهم - وحيدا - تحت أي ظرف، ... كما تبلورتْ لديه صورة الشيخ طلعت تماما.

هل كان الخوف وحده سبباً للفرار؟

طَبَعَ كامل زيد قُبلة على جبينه، قال:

اشكر ربك، فموقف كهذا، ربما كانت فيه نهايتك...، الوطنيون أنفسهم - والله -، يضمرون التربص لطلعت، ولن يتوانوا عن تدبير، مَن يقطع دابره من هناك.

أضاف - ضاحكا هذه المرة -:

كانت حكايتك، ستكون الثانية بالديرة، هذه الأيام، بعد حكاية (كُزْمان) الشايب.

ماله كُزْمان الشايب؟

من سنتين وقع له حَادث فظيع، فقد فيه ولديه، وشُلَّ نصفُه السفلي

تماما.

(وبعدين)...

وضعتْ حُرمته ولدا منذ شهر، ولمّا أرادوا عقابها، صرخ كالثور:

اتركوها، (الورِع ورِعي) وأنا أبغاه، ... ها.. ها.. ها.

اكتفت عينا السامع بالانغلاق، مستحضرا سؤالا لا ينتظر له جوابا:

ماذا لو خرج من عندها، كالمضبوط مع امرأة، في غيبة زوجها؟

...

لم يعط طلعت له وجها منذ العودة.

لا يستطيع - هو أيضا - أن ينكر، مدى انقباض قلبه، عند أول مواجهة بينهما؛ هل يُعد هذا إثباتا جديدا، على أن الأرواح أجنادٌ مجندة، تتباغض وتتآلف، دون أسباب منطقية ظاهرة؟

كم من شخص لم تره عينك قط، وتهلُّ عليك طلته الأولى مُنْبئةً بالبِشْر، أو العكس كما هو كائن هنا، ...

يتظاهر سرحان - أحيانا - بالتوفيق بينهما، دون القبض على زمام حاسم، والمشكلة بالفعل، في الافتقاد لوقائع ثابتة، يمكن الانطلاق منها، إلى تحديد مَدين ومُدان، لذا بدا الإعراض كأنه فطري، ...

أم أن لامرأة نصار يدا في الأمر؟ أيمكن أن تتخذ من انصرافه - كالفارّ من المجزوم -، امتهانا لكرامتها و جمالها؟ هل أسَرَّتْ لطلعت، بتفاصيل مغايرة، لا يعلم كُنهَها إلا الله؟

...

يضيق البيت به، يحاول قتل ساعات وسط النهار، مع صاحب الكتشينة ينقضي الوقت، سجالا بينهما يجري اللعب، يتقلب مزاج العم إمام، كتقلُّب فصول السنة، لا تتوقف نكاته، لا يمكن لأحد أن يُمايز فيها، بين الحقيقة والخيال، أعاد - آخر مرة - على مسامع جليسه، ملحوظة تقارب الشبه مع ابنه، امتدَّ حديثه إلى الأسرة في الصعيد، اجتاحه سيل مفاجيء من الضحك، سرعان ما انقلب، إلى نوبة بكاء حادة، اختلط فيها دمع الحالتين، فشلت محاولات تهدئته، وكمن سقط من علٍ، قال:

عمرك شُفت حُرمة، تترك رجلُها وتموت، وقت الجماع؟

- أبدا.

- عملتْها حُرمتي.

عجزت حواس الجليس، عن إرسال تعبير محدد، لملمتْ خطواته نفسها، اتخذت طريقها نحو النخيل، لا بد من جولة تحت ظلاله، قبل التوجه إلى الشباب، توقف مستجيبا للنداء:

إنه سيد المنصوري - عامل محل الزيوت بطرف الديرة -، حمد له إيصال مائتي الريال، إلى أهله في مصر...

انتقلت امرأته - منذ شهر -، للعيش مع أهلها، بعد أن أغلقت بيته، جَدَّتْ عليها الخشية - هي وابنتاه -، من المبيت به دون رجُل، و...

طفَتْ دمعاتُه خجلَى، قال:

لابد للبيت من سقف خراساني، بدلا من (السَّدَد)، يلزمني خَمس سنوات على الأقل.

تبدو القصة متكررة، مع اختلافات بسيطة، في الشخوص أو الوقائع؛ ذهب الرجل إلى آخر الدنيا، ليفتح بيتا - كما يقولون -، فإذا ببيته المفتوح ينغلق.

...

عند الشباب انفتح باب السؤال:

هل يمكن له، أن ينسلخ عن رفيقيه؟

قال كامل:

لو عندنا مكان ما تركناك.

حذر خليفة، من خطورة تركه لسكن العنود، مشيرا إلى كلمتها لدى الإدارة، أعاد حكاية المتعاقد الذي أغضبها، وتم نفيه وسط العام، رغم تحريم النقل أثناء الدراسة.

سأل عن إمكانية استسماحها.

رأى خليفة أن الحل الأمثل، في الإقامة - ببيتها الآخر -، مع ماجد، وعلي الشريف.

قال كامل:

ليس بالبيت سوى غرفتيهما، وغرفة ثالثة لخميس، تستقل بباب منفصل على الطريق.

لاقت فكرة الاستسماح قبول البعض، صاح عصام - على طريقة العلماء في قصص الأطفال -:

وجدتها...، ما رأيكم في غرفة الفراخ؟

قال حربي:

قذرة، ولا شباك لها على الخارج.

ردّ عصام سريعا:

الشباك ليس مشكلة، وأنا عليَّ التنظيف.

اعتاد الشباب، جَلْبَ أفراخ الدجاج من المحافظة، يسكنوها الغرفة لمدة، مستفيدين من بقايا الطعام كقوتٍ لها، فيتضاعف حجمها، وتَصَادَفَ ذبحهم - اليوم - لآخر واحدة، من آخر دُفعة.

استقبل سرحان الفكرة متظاهرا بالرضا، بل وصحبه إليهم، عارضا لها بنفسه...، بعد انصرافهما قال كلمة واحدة:

صعب.

رفع حاجبيه، مشيرا إلى بناء، على مرمى البصر، وسط نخلات وشجيرات مجهولة، قال:

- هناك، تسكن مصرية.

ههـ

- اشتراها شايب فوق السبعين، تزوجها يعني.

- فوق السبعين؟!

– لا يسمحون هنا بالزواج من أجنبية، إلا للشيبان، أو لذوي العاهات المستديمة، المُثْبَتة بالأوراق الرسمية.

- هنا؟ ومن يجبرها على ذلك؟

- هذه مافيا يا ابني، وتجارة، وحاجة، وعَوَز، وهَمّ كبير،

و... وإليك ما هو أكبر.

- أكبر؟

- داوم أولاده الخمسة على مراودتها، دون مُغيث، قال الشايب:

ما جاءت إلا من أجلهم!

- يارجل!

- تحب تروح؟

- وهل رحتَ؟

- ما عليك، تحب ولاْ ...؟

- ولاّ...

ماذا يقصد سرحان، من تلك الحكاية، في هذا التوقيت بالذات؟

هل يريد الربط، بين ما تتحمله تلك المرأة، وبين عدم قدرته - وهو الرجل -

على التحمل؟

لماذا صحبه إلى الشباب أساسا؟

أيحاول تبرئة ساحته أمامهم، من تهمة في ذهنه؟

أم أنَّ خبرته استشعرت الرفض مقدما، وعليه فلا ضير في الذهاب؟

في الغد، قال كامل بأسف:

ابق مكانك، مالنا إلى العنود سبيل.

...

- سأل عبد البديع - باحثا عن منفذ آخر -:

أيمكن الانفراد في المعيشة؟

أجاب سرحان في - حسم -:

أبدا...، هذا نقْصان كبير، يعرضنا لعتاب الآخرين.

المعادلة - الآن - أكثر صراحة:

يُلقي أحدهما بلحمه فوق الآخر، يتحاكّان كرجل وامرأته، تغافلهما الكلمات متلاعبة، والذكريات مجترة، يستخدمان الشفرات، في التفريق بين المضامين والمقاصد، ...

هل من محاسب؟

من بعيد يسحب نظراته عن المشهد، قبل أن يكتنفه الانزواء.

· إذن وماذا بعد؟

يجيب على نفسه: -

عليك ياولد بحكمة الكبار:

لا فتوة يا ولد في انتصاب المنتصب، الفتوة يا ولد في اشتداد المرتخي - هذا قول أبيه يأتيه -، الشعاع الضئيل، يصيب العتمة الكابية بالقلق - وتلك مقولة لأحد معلميه -.

يتعلق بأهداب المقولات، باحثا عن شعاع ضئيل، يصيب العتمة الكابية بالقلق، قد يكون الشعاع في تلك التفاصيل الكائنة من حوله، لعل غرقه فيها يكون بديلا - إجباريا -، عن الغوص في تفاصيل أخطر، تتعلق بالعشيرة والبيت والأذقة والقرية و...؛ حيث صار لكل كلمة منها، مردودٌ نفسيٌّ خاص.

...

بالمدرسة تسلم رسالة جديدة، حوت صورة ملونة لابنته الصغيرة، بدت غاية في الحسن، ونصف صفحة لجريدة، نُشرت بها إحدى قصصه الجديدة،

حاول الانتهاء من القراءة الأولى، قَطَعَ بخيت القراءة مناديا:
اجتماع يا رجال.
حصَّلَ خمسين ريالا من كل معلم، قال:
هذه للرحلة البرِّيَّة.
وزَّعَ بعض المهام عليهم.

سِربٌ من العربات، يتوجه ـ أحد أيام الخميس ـ بالمعلمين وبعض الطلاب، إلى منطقة خارج الديرة، الأرض متسعة بمرتفعات عدة، تتخللها أنفاق وأكواخ طبيعية، تنبت فوقها، وفي سفحها أشجار الأراك ـ مصدر السواك ـ، وكتل حجرية بأحجام البيوت، تتراص فوق بعضها البعض بنسق عجيب، في ظلها تُنحر الشياة، يُشوى لحمُها على نار الأغصان الجافة، لأشجار (السَّمُر) الصحراوية، مباريات في مجالات متعددة، وفي الأكل والغناء، ينقضي يوم عجيب...

يجيل عبد البديع البصر، يصنع خيالُه من كل كتلة حجرية مخلوقا؛ هذه على هيئة إنسان يصلي، وتلك لآخر بائس، أما تلك فلحصان جبار أو لعفريت أو...، يستغرقه التمني، في أن يحتويه سكنٌ، بتلك البقعة البعيدة عن الخلق، علَّه ينتشل أشلاء نفسه، قبل أن يتحوَّل، إلى مجرد مسخ حقيقي.

...

أقنعَهُ مروان ـ وسط الأسبوع ـ بالنزول، حمل معه رسائل الشباب، وبعض رغباتهم من المقاضي، منحه عصام قائمة مقاهي ـ لا فنادق ـ المبيت، له فيها خبرة ـ كما يقول ـ، يقضي المعلم ليلته بلا غطاء، مقابل ريالات خمس، فوق أريكة مكسوة بفراش مليء بالبُقَع المحترقة، من جرَّاء نيران (الشيشات).
أمام فندق الزهراء ودَّع مروان، ...

على الناصية المقابلة، لاحت الأبواب الزجاجية لمكتب آل دبيس، لمحته عيون أحمد الجزار، شجعته كلماته الملحة على البقاء، افترش ـ برغبته ـ الفُرْجَة الضيقة، بين الثلاجة القزمة و السرير.

بدا ـ تلك الليلة ـ كمن فُك أسْرُه؛ لم تزل في أذنيه كلمات الأولاد، و صوت امرأته ـ عَبْرَ الهاتف ـ حانيا، يحثُّه على استلهام مداد متجدد للصبر.

مع الفجر، بدأت سيارة مروان مشوارها، لتدرك طابور الصباح، ترنو عيناه خالية التعبير، إلى الرمال والجبال، والآفاق.

...

قبل الحصة الأخيرة، خرج كامل من غرفة المدير، بدت ابتسامته أعرض

كثيرا، قال دون انتظار:.
سأستأمنك على سر:
إخطاران بالتجديد، وصلا من الإدارة، أحدهما لي.
- مبروك...، والثاني؟
- اهتزت شفته العليا، بشاربه الصغير أسفا:
لنصار (زفت).
- طيب وأنـ...
- ... أنت تجديدك تلقائي لثلاث مرات قادمة، بعدها يلزمك إخطار مثل هذا - فرَدَ ورقةً بين أصابعه -، كلنا في السنة الرابعة، ماعدا سرحان في الخامسة، وعصام قبلك بسنة.
جدَّت - من يومها - على لغة سرحان، نبرةٌ ودودة، قال:
سأسقيك خبرتي في الأعمال الكتابية والامتحانات، ومن أول السنة تمسك بكل شيء، أنت أَوْلَى من كامل و نصار.
اكتفى السامع بالدعاء لمن يعيش، حتى تأتي السنة الجديدة.

...

سيطر الغيم على الأجواء، انكسرتْ حِدَّة الشَّمس، انفجرَ رَجمُ السماء، اغتسل الكون، تغيَّرّ ما طرأ، على مشاعره القديمة نحو المطر، قال خميس:
اليوم يبدأ موسم الخير.
صبيحة الغد، أمسك الرفيقان عن التأهب للمدرسة، قال سرحان:
عندما يأتي السيل لا نداوم.
تَبِعَ هو عشرات الأولاد، في التَّحَرُّكِ صوب الوادي، استحال مجراه إلى نهرٌ خُرَافيٌّ، تتلاطم فيه الأمواج، تُسرع مياهُه نحو الجنوب، مُحَمَّلَةً بحُمْرَةِ الرمال الناعمة، السعادةُ فوق وجوه الأولاد طافية، والبِشْرُ يسيطر على الأفق.
يقطع السيل الديرة، إلى نصفين منعزلين، على صفحته سِجِلٌّ حافلٌ بالضحايا، الذين جرفهم، ليس لعدوانه، بل لاجترائهم على هيبته، ... ليس إذن سوى ذلك الجحش الضامر، لعبد الله المصري، ليصل بين النصفين.
(تقطع الرِّجْلُ) من وإلى الديرة، إلا عن طريقٍ جبلية وعرة، لا يسلكها إلا المغامرون، في أحلك الظروف، إنها الطريق التي شهدتْ - ذات سيلٍ مُشابه -، خيبة ذيب سعيد - كفيل إمام -، بعد تغريره براعية الغنم البدوية.

تُلامس مزرعةُ ذيب الشاطيء، منها تنطلق حنجرةُ إمام العذبة بالغناء، تُردد صداه الجنبات، بأحجارها ورمالها وحيواناتها، وزروعها، حتى سيل واديها.

إلى جوارها تقضي بعبد البديع الساعات، تحلّق به أحلامُه، حيث قريتهم على شاطيء النيل العظيم، وحيث مئات المرات، من عبور جسده للمَجْرَى المقدس، إلى الشاطيء الآخر، جالبا ثمرات الكمثرى، وكيزان الأذرة الخضراء، منتظرا في كل مرة - عكس أقرانه -، يد الجنية لتسحبه إلى عالمها السحري، الذي طالما رحل إليه، في حَكَايا جدته، إلا أن أمله يخيب، ويد الجنية لا تجيء، ...

ماذا لو استمر هذا السيل، إلى آخر الزمان؟

...

انحسر الماء - مع الأيام -، اخضرّت الأرض، ازدادت نغمات الطيور، خرجت الحشرات والزواحف، من الجحور مغسولة، في مشاهد تدعو العقل إلى التوقف، عن التعامل بمنطقه التقليدي، ...

التئم شَمْلُ الديرة، عاودَتْ المدرسةُ فتح أبوابها، انتظارا لنوبة مطر آتية، لتتكرر نفس الحيثيات.

يقول إمام - ناظرا إلى أوانيه الحُبْلَى بماء المطر -:

مسارب عديدة بين المرتفعات، على طول مئات الأميال، تصل بالماء إلى الوادي، ...، ماء المطر سُكّر، والسيل حنون لمن يعي، (واعر) للغشيم.

قال سرحان، - ذات جمعة -:

غداؤنا اليوم، عند الولد نزهان النزهان.

والولد نزهان، أصغر أربعة أخوة بفصل سرحان، بالفصل الواحد تتعدد التوائم، كما تتعدد الأخوة؛ ينتظر البدوي - الذي تتعدد زوجاته غالبا -، حتى يجتمع لديه بضعة أولاد، يلقي بهم معا إلى المدرسة، يقود كبيرهم سيارتهم، ويتولى أمرهم، ومن عادات الديرة، أن الأولاد يعزمون مثل الكبار.

بعد قليل بلغتهما ندهتا الولد وأبيه، نجحا في اصطحابهما رغم التردد.

يبعد المكان حوالي عشرين ميلا، لم تزل آثار نعمة المطر بادية، تنتصب خيمتان متجاورتان، أشار نزهان:

هذه خيمتنا - الكبرى ...

وتلك لأخواتي - الصغرى ..

لمح سرحان فراشا أرضيا، خارج الأولى، سأل:

ما هذا؟

إنه منيمنا في الليل.

سأل سرحان بانزعاج:

والحَنَش؟

أجاب الولد في هدوء:

لو يريد ربك يأتينا هنا - أشار إلى مجلسهم بالداخل ..

لم يتمكن سرحان من تكوين أي رد.

همس عبد البديع:

فعلا، ''خذوا الحكمة من أفواه الصغار'' - مستبدلا كلمة (المُجانين)، في القول الشائع، بكلمة (الصغار)..

لا يتعدى الحضور أصابع اليد، يتقدمهم شيخ القبيلة، وزوج إحدى بناته، بدأت المراسم بتقديم سِحَل - أوان - حليب الإبل، قال أحد الحضور:

حليب الإبل صحة للبطن الصحيحة، وعلة للبطن العليلة.

عافت نفسه الحليب، اكتفت معدته بالقليل من اللحم، خوفا من مغصٍ شديد، يتردد على بطنه، منذ ليلة الأمس، وَدَّ - مرة أخرى - لو انفرد بمكان كهذا، واستعادت مخيلته، ملامح رحلة المدرسة البرية.

سيطر السهو على سرحان حتى البيت، انفلت من صدره تصريح مفاجيء:

لو طاوعت زهرة فيما تبغاه، لكنت أول المجددين.

- نعَم؟ تبغاه؟

- ألآن يمكن أن أبوح لك بسر كبير.

- سر؟

تأهبتْ كلماته للانطلاق، أوقفتْها النحنحةُ القادمة لخميس، مالَ فمُ أحدهما على أذن الآخر، تشابك ذراعاهما كحلقتين، وأسرعا نحو بيت المرتقع.

نزل عبد البديع إلى المزرعة، تفاجأ بعصام - بملابسه -، وسط الفسقية المترعة، حرارة الجو وجفافه يعيدان الملابس لحالها سريعا، على حافتها أراح مؤخرته، مدليا قدميه في الماء.

سأل عصام:

ماذا عن آخر الرسائل القادمة، مع سيارة البريد يوم الأربعاء؟

ينصرف الجميع - عادة -، قبل حصة الأربعاء الأخيرة، بما في ذلك الوطنيون، الذين يسافرون إلى ذويهم، ليعودوا مساء الجمعة، تأهبا لدوام الغد،

وَحْدَهُ يبقى سرحان؛ المكلّف باستلام الرسائل وتوزيعها ، بعد توقيع بخيت عليها.

أجاب عبد البديع ـ مرددا ما سمعه من سرحان ـ:

هناك رسالتان ، (لأَعْفَن) متعاقدَين.

نقل عصام المقولة إلى الشباب ـ دون علمه بقائلها الأصلي ـ ، تملكهم الفضول لمعرفة هذين العفنَين.

اقتحم سرحان ـ صباح السبت ـ ، حجرة المعلمين ، وسط سكون حَذِر ، امتدَتْ يدُه برسالة إلى خليفة ، وبأخرى إلى حربي ، دارت زومات مبهمة ، لم تشغل عبد البديع ـ خالي البال ـ.

في المساء ، فاجأه جفاف مقابلتهم ، سَحَبَه كامل إلى غرفته ، سأله عما قاله لعصام بخصوص الرسائل ، اعترته الحيرة:

أيفصح عن صاحب المقولة الحقيقي؟ ... وماذا لو أنكر ـ وقَطْعاً سينكر ـ؟

نَبَّهَهُ كامل إلى تصميم الزميلين ، على تقديم مذكرة إلى المدير ، مما يهدد بنقصان تقريره ، وتضاؤل فرصته في التجديد.

ردد بآلية:

خطأ بالصدفة ، يجلب كل هذه اللّغَط.

كلّتْ محاولات التوفيق.

ارتفعت كتفا خليفة قرب شحمتي أذنيه ، ، قال:

لم أتوقع ذلك من صديق.

حطّتْ كفُّ عصام ـ ناقل العبارة ـ ، عند جبينه العابس ، قال:

ما بغيت إلا التَّفَكُّه.

ركب حربي التشنجُ ، ارتجفتْ سجائره بين أصابعه ، أطلق تشكيلا غريبا من السُّبَاب ، قبل أن يروح في إغماءة قصيرة.

قال عصام:

بهذا السُّبَاب ، صار للمسبوب أيضا حق ، ...

واقترح صيغة للتصالح ، على أن يتكفل عبد البديع ، بعشاء الجميع غدا ، ...

سادَتْ همهمة ، فتح كامل كفيه ، في مواجهة السماء ، قال:

خلُّونا نقرأ الفاتحة.

...

في الغد ، دعا المدير لاجتماع جديد ، انخلع قلبه ، ظانّاً أنه بخصوص وقائع الأمس ، تناول الاجتماع أمورا تخص الإشراف اليومي ، وتوزيع الحصص ، قال

المدير - أخيرا -:

لا تغادروا بعد الدوام، الأمير عازم الهيئة على الغداء.

جدَّ رجال الإمارة، في خدمة ضيوف أميرهم، فيما لم تستسغ ذائقة عبد البديع لحم القاعود - الجمل الصغير-

نفض سرحان يده من الأكل، استقامت رقبته، نادى الأمير بكنيته:

أبا حازم، الغداء عندنا باكر...

أجال بصره ملوحا:

أنا عازم الجميع، على شرف الأمير، قولوا:

تم.

التوَتْ أعناقُ بعض المتعاقدين، وردد البعض بفتور:

تم.

...

على عشاء الصلح، تبادل عصام وعبد البديع خدمة الشباب.

...

مال سرحان على خميس - بعد صلاة الفجر - قال:

اختر (أفحل) خروف عند العنود، بثمنه طبعا، هات منها أواني العزايم، سأبقى معك لتجهيز الغداء، ومع عودتهما من المدرسة، يحمل طلعت - من بقالة منصور -، كرتونتيّ الموز والتفاح، وعبد البديع الماء المعدني والبارد.

بردهة التلفزيون المسقوفة، احتل الأمير صدر المجلس، منتفخ الصدر والوجنتين، من حوله سَرَى الانتفاخ إلى رجاله، لا تمازح كلماتهم سوى عيَّاض كثير الحركة.

تلمع جبهة خميس بعرق الانهماك، تطل على الجميع طلعة سرحان، المشمر عن زراعيه، لا تفوته فرصةٌ، لاستخدام أقوالهم في مثل هذه المناسبات، يتأمل وجوههم بانتشاء، يصيح:

حياكم الله .

ومن خلفه، يردد طلعت كببغاء.

فيردون في أنفاس متقاربة:

الله يحيِّيك.

يجتهد نصار لنشر نكاتٍ قديمة، لا مردود لها، سوى في اتساع فم طلعت كالأبله، وابتسامات الأمير المصطنعة.

من قريب، يأخذ عبد البديع التأمل، يساهم في صَفِّ الفاكهة، بشكل دائري، عند حواف مفرش (السُّفرة) البلاستيكي، بين زجاجات البارد والماء، ...

وسط الدائرة، هبط الخروف بطبقه الميمون، انبسطت كفا سرحان مشيرة إليهم، قال بفخار:

(تِمُّوا) على غدائكم. إشارة البدء ـ

لم يتحرك بدنٌ، قبل تحرك الأمير. صاحب شرف العزومة ـ، ولم تمتد يدٌ قبل يده.

يحوم خميس. مع سكان البيت ـ، متأهبا لتلبية أي أمر.

ومرة أخري، لم ترتفع يد عن الطعام، قبل ارتفاع يد الأمير.

قال الأمير، ورجاله من بعده:

جاد الله عليكم.

ردد سرحان عدة مرات:

بالعافية.

لعلها المرة الأهم، التي تنبه فيها آخر المتعاقدين، لتلك المراسم الصارمة، من المؤكد وقوعها أمامه من قبل، لكنه كان الحاضر الغائب، يتساءل:

أيدخل هذه الديرة، ويخرج كما دخل؟

يعتقد ـ دون جزم ـ أن الفرصة، لو سنحت له ثانية؛ بظروف مغايرة، لأصبح أكثر قدرة، علىٰ فك أبجديات قاموسها الحياتي، بإرثه وعاداته وتقاليده و... ، و لعل سرحان ـ من وجهة نظر تحتمل المناقشة ـ، يُعَدُّ الأكثر ولوجا إلى هذا المجتمع، من مدخلٍ لا عشوائي.

قال خليفة مقهقها:

البدوي يعزم (عشرين لعشرين)؛ يعني عشرين رجلا في عزومة واحدة، لينعزم عشرين مره.

...

عند حساب آخر الشهر المعتاد، توزعت التكلفة على ثلاثتهم، مع استمراء سرحان الادعاء، بأن العزومة عزومته، وبدا أن أي احتجاج سيُعَدُّ من الكبائر، إذ سيشاع ـ وقتها ـ تخاذل المحتج عن أداء واجب الأمير، ... والأمر ـ على أية حال ـ ليس بجديد؛ فطلعت يجلب خاصة مقاضيه ـ شامبو لا يصلح إلا لشعره الجاف، عطور، أقلام، صابون طبي، ماكينات حلاقة، معاجين، ... ـ، إلى دار نصار يهدي دون اكتراث، والبركة في دفتر الجماعة.

...

لم تعد إمكاناته النفسية متأهبة، للدخول في أية مناوشات - مهما صغرت - مع رفيقيه، يشغله - الآن - فقط، كيفية التحايل على الأيام لتنقضي.

...

أقبلت أجازة الحج تتهادى، بعد طول انتظار، من كل الأقطار المجاورة يسهل القدوم، إنه الحلم الذي بدا محالا قبل سنوات، من النية والإحرام، إلى الطواف، والسعي، والوقفة، و...

تغتسل الروح.

للدموع حلاوة، وللرجاء، إنها الحالة النادرة - منذ السفر، التي تتوجه فيها مشاعره وِجهةً واحدة، لا شريك لها.

سِنَةٍ مِن نُعاس عجيب.

مَشَقّةٌ لذيدة.

أين ذلك مما كان، أو يمكن أن يكون؟

١٢

عليه أن يحتكم - عبر المتاح -، إلى مزيد من احتواء النفس - يعلم ذلك -، انغمس في قراءات قُرئت من قبل، شطحاتٌ عصرية، مبارياتٌ للكرة مليئة بالشجار، بين أُناسٍ لا يفقهون - أساسا - في اللعبة، بقالةُ منصور، لشرب البارد، وتفقد المقاضِي، والثرثرة مع الرواد النادرين، مشاهداتٌ تلفزيونية غير ذي جدوى، حجرةُ العم إمام، و...

مشغولٌ هو (بأنْسَنَةِ) الأشياء، ألْبَسَ كلَّ شيء اسما خاصا - كل ناحية، قمة، وَهْدَة، كثبان، مزرعة، طريق، مدق، سياج، ... -

مَنَحَ كلَّ إنسيّ - طالب، معلم، بدوي، حُرمة، ... -، صفةً تعلو نبرتُها في تكوينه، مستوحاة من ملامحه، أو اسمة الأصلي.

مع الرسائل، وتأمُّل الصور، حاول - مرارا - استدعاء البعيد، وبسن قلم الرصاص، راح يَخُطُّ ما يَعِنُّ له، فوق الأوراق العَطْشَى.

...

استجدت (الكوتشينة) على جلسات الشباب، لا يزال خصام خليفة مع كامل - بسببها - قائم، فيما نجح - هو ومروان -، في التوفيق بين حربي وعصام.

عند آخر زيارة، احتدم الصراع على ريالين، في حساب بنزين السيارة، لم تعد تنفضُّ الصراعات - على بساطتها - بسهولة.

كَبَشَ كامل كبشةَ بلحٍ - من (شيكارة) بالركن -، ألقى بها قُرب الضيفين، تناول مروان واحدة، قال مستعذبا طعمها:

من (وين) ياكامل؟

قال كامل:

هدية من عوض راجح، صاحب البيت.

رمى حربي الأوراق، راحت عيناه نحو (الشيكارة)، قال:

خلُّونا نقتسم.

نادَى على عصام، انحطّتْ الشيكارة وسط دائرتهم، امتدت يد كامل بكبشة أمامه، وبأخرى أمام خليفة، و...

صاح حربي محتجا:

بالواحدة يا كامل، بالوااحدة.

لم يبْدُر أيُّ تعليق.

صنع فم كامل علامة امتعاض ضيقة، عادت يدُه لتعيد الكبشتين إلى الشيكارة، ثم راحت تدور، لتلقي ببلحة واحدة، عند كل شخص، في كل دورة ...

بعد عدة دورات (بلحية)، انسحب الضيفان، دون إثارة الانتباه.

قال مروان - والحال هكذا -:

(أيش) هذا يارجل؟

لم يبق إلا تقسيم الفجل بالعود.

رواتبهم كبيرة، و(ليش) هذي الشباشب، وهذي الترنجات الوضيعة و...؟

قاطعه ممازحا:

الترنجات من جديد؟

أضاف - وهو يشير إلى نفسه -:

ما كفاك كلامك - زمان -، على ترنج أخيك الأصفر؟

...

في الزورة التالية، انصب الحديث على مشاجرة المحارم:

طلب بدويٌّ مَحْرَماً للعمل عنده، في محطة بنزين - لازال بصدد إنشائها -، بخمسمائة ريال شهريا، عَرَضَ مَحْرَمٌ آخر على البدوي، العمل بثلاثمئة فقط، وعليه قامت المعركة، وقُدِّمَت الشكاوَى للإمارة.

لم يُفَوِّت الأميرُ الفرصة:

أبدي سخريته، من بعض المصريين - على كلامه -، صمم على تصعيد الأمر، الذي قد يؤدي إلى السجن، أوالترحيل.

نشطتْ محاولات جادة، لتوسيط من يجمعهم (العشم) به، تملّص منها سرحان على الفور، ...

قبل الأميرُ أخيرا - دعوة نصار، على عشاء من يد الحُرمة، على أن ينقده المحارمُ مبلغا يحدده، ثمنا للصفقة.

...

واصل سرحان تمثيلية تعليمه، للمكاتبات المدرسية - البسيطة - في سرية، تظاهر عبد البديع بالجدية، موقنا عدم الجدوى، فسابق خبرته - في مصر -، بتلك

الأعمال أكبر وأعقد.

قال كامل:

سرحان يحاول كسب ودك، لترسل له - السنة القادمة -، مكافأة نهاية الخدمة، أنت الأقرب للاستمرار.

المكافأة شهر، عن كل سنة خدمة، من آخر راتب للمتعاقد، يصرفها قبل الرحيل، إذا أُخْطِرَ بالإنهاء، قبل نهاية العام بشهرين أو أكثر، وإلا فعليه أن يوكل أحد المجددين، ليصرفها عنه، ومن ثم إرسالها إليه، مع بداية العام الجديد.

...

للمدرسة فسحتان، إحداهما للإفطار، والأخرى لصلاة الظهر، يشارك عبد البديع، كلا من خليفة ومسْفر، في الإشراف يوما كل أسبوع:

يتولى خليفة تنظيم الطلاب عند (الكانتين)، ويقوم مسْفر بمراقبتهم حول المدرسة، خشية انفراد أحدهم بالآخر في الخلاء، واختص هو بملاحظة الحمامات، و(ماتور) رفع المياه، من البيَّارة إلى البزابيز - الصنابير -،... فيما يتعاون ثلاثتهم - بفسحة الصلاة -، في متابعة الوضوء، وتنظيم الصفوف خارج الجامع وداخله.

وزعت شمس يومهم الأخير، صهدها على الجميع، أرسل (الماتور) شرارات متفرقة، أمسكت إحداها بتلابيبه، ارتفع صياح الطلاب، راحوا يرمونه بالحجارة، وقطع خشبية لمقاعد قديمة، ازداد الاشتعال، والصياح، سارع المشرفون بإلقاء الرمال عليه، ولم تخمد النار، إلا بعد تحويله إلى هيكل فَحْمِيّ.

اجتمع المدير بالهيئة، أبدى ارتياحه لعدم إصابة أي من الأولاد، طلب اقتراحاتهم، أمسك الوطنيون عن التعليق، اتَّفَقَتْ فتوى الرفيقين، مع رأي حربي، في حتمية شراء المشرفين (الماتور) جديد.

حذر المدير مشددا - بذات الاجتماع -، من السماح للطلاب بالخروج أثناء الحصص، بدعوى قضاء الحاجة، أوضح أنهم يستغفلون المعلمين، دون حاجة حقيقية.

مال كامل على أذنه هامسا:

الأولاد يفعلون في بعضهم، حاجات بنت كلب...

صوَّبَ بخيت نحوه مدفعيّ عينيه، فعاود الاعتدال ممثلا الوجوم.

باليوم التالي، منع خليفة أحد التلاميذ، لحظات وانتشرت رائحة (براز)

طازج، سيطر على خليفة الارتباك، أمر الولد بالخروج لتنظيف نفسه، قبل أن يعودة، انقضتْ فسحة الإفطار، لكن الولد لم يعد.

بعد الصلاة، وأثناء العودة من الجامع، تأبّطَ هو ذراعَ خليفة، يسير المعلمون ثنائيات، ويتابع المشرفون صفوف الأولاد.

توقفتْ فجأة سيارة جيب حديثه، (كحّتْ) عجلاتُها الأرض، غادرها بدويٌّ حافٍ، غليظ الرأس، مكروش النفَس، صاح:

(وين) خليفة المصري هذا؟

أجاب خليفة - لا إراديا -:

أنا ...

هجم البدوي كالمسعور، صفعا ولكما، ردد:

يا ملعون الوالدين، (ليش) حبست (الورع)؟

أوقفَ الموقفُ تحرُّكَ الألسنة، تمنى عبد البديع لو عاجله الموت، قبل تلك الواقعة.

عاد الرجُل ليصرخ:

والله لابد من طخك (بالبندُجة).

انتزع البعضُ الفريسةَ بصعوبة، من بين أنياب الثور الهائج.

ساد الأولاد هرج فظيع، علا تهليلهم وكأنهم بمعركة، حققوا فيها النصر، على عدو مبين.

قال طلعت مع سرحان:

البدوي عنده حق.

انتحى نصار جانبا، متجنبا أي تداخل.

توجه الوطنيون - في لامبالاة - إلى حصصهم.

تظاهر بقية المتعاقدين بعدم الرضا، في ما يشبه الإضراب.

ردد خليفة لبخيت بانكسار:

أنا (عاوز) حقي.

اتسعت عينا بخيت - مغتوم الوجه -، بلا دلالة محددة.

قدم الشباب - بعد الانصراف - بلاغا للإمارة، ودارت - ليلا - أحداثٌ طوال.

في طابور الغد، ساد التوجس الجميع لرؤية البدوي، اعتلى المنصة قفزا، اغتصب (المايك) من يد نصار، زعق في ثبات:

أعتذرُ منك يا خليفة، أعتذرُ بشدة...، الخطأ خطأ المدير، أمَرْكم بحبس (الورعان).

لفّ غترته حول عينيه ماسحا العرق، أضاف:

عشاؤكم عندي الليلة، على شرف الأستاذ خليفة، قولوا:

تم.

ردَّدَ الأولاد - على هيئة ترديد السلام الملكي -:

تم تم!

ألقَى (بالمايك) لأقرب ولد، وهرول منصرفا.

لم يُلَبِّ دعوة العشاء سوى الوطنيين، إضافة إلى خليفة نفسه!

...

كَثَّفَ سرحان من تردده، على بيت العنود، قال خميس:

صاحبك شغَّال على (ودْنه).

قال عبد البديع - سرا -:

يبدو أنه بصدد استخدام المفتاح السحري لزهرة - كما سبق وأشار -، في محاولة التجديد لعام سادس.

لم يُخفِ سرحان حاجته إليه، لإرسال مكافأة نهاية الخدمة - إذا لم يجدد له -، كرر الثرثرة عن (تحويشته)، وإمكانية استثمارها - بمساعدته -، في مشروعات دمياطية، انتفض واقفا في حركة تلفزيونية، رد باب حجرته خلفه، عاد بنصف ورقة، بها أرقام ثلاثة، قال:

هذا - الأول - تليفون المنزل.

وهذا للمدرسة.

أما هذا - الأخير - فللمدام في العمل...، التنسيق ضروري، والمصلحة مصلحتك.

سحب نفسا هادئا، امتدت يده، بورقةٍ أخرى وقلمٍ، قال:

تليفونك لو سمحت...، لا بد من التواصل.

تململ القلم في يد عبد البديع، وفي خطوة فارقة - رغم ظاهرها البسيط -، كتبَ رقما مغايرا لرقمه الصحيح.

فاجأه أغلب الشباب بسلوكيات مشابهة، بخصوص المكافآت - الأهم -، والتحويشات، وغيرها، مُصِرِّين على تبادل التلفونات، والغريب أن بعض الوطنيين، دخلوا نفس الدائرة، لكن تحت مسميات أخرى، كالزيارة، والتمتع

بالخضرة والماء، وبنساء مصر الحسناوات والسهلات في آن ـ كما يوقنون ـ.

تململ القلم في يده مرات أخرى، ليمنحهم جميعا، نفس الرقم المغاير، مكررا إياه لمرات خشية نسيانه.

رسم طلعت بَسْمَةً كالحة، قال:

سأشتري (جهازي) من عندكم، وطبعا البركة فيك.

طبعا.

قال سرحان ـ المتابع ـ:

تلفونه معي، نتصل أولا، قبل أن نذهب معا.

...

في نوتة صغيرة، ذات غلاف بلاستيكي أسود، اجتمعت لديه كل أرقامهم، تساءل صامتا:

حتى أنت يا طلعت؟

سِمَةٌ جديدة ممقوتة ـ التظاهر بالود ـ، جدَّتْ على الغالبية، ربما كان آملا ـ آنذاك ـ، في تَحْريم تلك الديرة عليه، بمن صادف بها، كحُرمة محارمه، متوقعا ـ وليس قاطعا ـ أن استقدام أسرته ـ لو تم ـ، سوف يساهم في آلية التحريم، وذلك بنقله إلى ديرة، تناسب وضعه الآتي.

...

وصل إخطار بسفر آخر العام، حار المتعاقدون، قال المدير:

على الجميع طلب تأشيرة (خروج وعودة)، لم يصلني ـ حتى الآن ـ، أي إشعار صريح، بالإنهاء لأي منكم.

توقفتْ محاولات سرحان، لتعليمه المكاتبات.

قال حربي ـ معززا نفسه ـ:

لا يمكنهم الاستغناء عنا، خوفا من العَجْز، كان نفسي في تأشيرة نهائي، ولكن ...

رد خليفة بهدوء:

الأمور لا تُحسم، إلا بالإدارة.

انحطّتْ كفُّ حربي، فوق (بطيخة) بطنه، وصعدتْ الحيرة إلى ملامحه.

لوحظ ـ منذ أيام ـ، إحجام مروان عن الثرثرة، مع زيادة الاحتقان في وجهه.

قال سرحان ـ بشماته ـ:

يبدو أنهم أنهوا لصاحبك، هيء.هيء...، ثلاثون سنة هنا، (فين) يروح؟، فلسطين وراحت خلاص..هيء.. هيء...

. فلسطين وراحت، (وهيء هيء) يا عم سرحان؟!

...

ندرَ تَوَاجُد خميس؛ موسم البلح على الأبواب، العمل بالمزارع مع رعاية البهائم يهلكه، إضافة إلى خدمة الشريف وماجد، والعنود...

قبل الأجازة بأسبوعين، انفرد بعبد البديع، قال:

العنود تبغاك.

لم يتمكن من تجاهل القلق.

قالت:

أنت (رجَّال) طيب، ما أصابنا منك سوء.

. ...

رفعت زهرة نقابها، انكشفت ملامحها الخمرية المتناسقة، تقتحم ابتسامتها أي قلب دون إبطاء، قالت:

نبغاك معنا العام الجديد، لنا رجالنا بالإدارة.

أضافت بدلال:

. لو بغيتنا.

حوَّلَ بصرَه عن غمازتيها، وحسنةٍ موشومةٍ أسفل ذقنها، قال:

إن شاء الله.

اقتربت بضع خطوات، بدا عنقها ومدخل صدرها، كأنهما لبكر لم تقربها يد، لوَّحَتْ بغطاء وجهها، أمام عينيها الخضراوين، فاح عطر عجيب، سألت:

ما تبغى منا خدمة؟

رد لا إراديا:

والله ما أبغى إلا الستر.

رَمَتْ شفتاها بابتسامة، أعجب من عطرها الفواح.

قالت العنود ـ فيما يشبه الأمر ـ:

عشاؤك عندنا الليلة.

رَدَّدَ ـ في حذر ـ بعضا من أقوال رفيقيه:

كثَّر الله خيركم، عشاؤكم واصل.

قالت بود :

رُح الله يستر عليك.

يخرب بيتك يا سرحان، من حقك تصعد، بدلا من المرة ألف مرة، والله اسم على مسمى (زهرة)، لكن ...

أعوذ بالله،... مالك يا ولد؟ . هذا ما دار بداخله، وهو يهبط المرتفع مع خميس..

...

سأله سرحان في ريبة :

فيم تبغاك العنود؟

تسأل إن كنت أريد شيئا.

امتدت شفتاه دون تعليق.

...

حان القدوم الأخير لعبيد الصراف، في معيته . كالعادة . سعد مشعل، قال بخيت:

احجب ثلاثمائة ريال من كل راتب.

أكملَ . وسط نظرات الاستفسار .:

لزوم الحفل الختامي...

أنا عازم مدير الإدارة، وكل الكبار.

هَمَسَ حربي:

(محروق) أبو الحفل ومدعويه.

يأتي الحفلُ . غالبا . قبل الامتحانات، بفترة قصيرة، وكان عصام قد سرب خبرا، حول قدرة عبد البديع على الكتابة، بعد أن أطلَعَه . ذات مرة . على مجلة، له بها قصة منشورة، وصار مشعان لا يناديه، إلا بكلمة (أديب)، لا يدري أجاد هو أم هازيء؟

قال بخيت آمرا:

اكتب مسرحية الحفل.

وكلف الآخرين بأناشيد، ورقصات شعبية وما شابه.

اقتصرت الدراسة . تقريبا .، على بروفات للأعمال.

دارت المسرحية . المولودة بعناء .، حول فكرة تقليدية . المساواة، وضرورة تحقيقها بين الرعية ..

...

جلَسَ بخيت (قعودين)، وبضعة خراف، وطُهاةٌ (بلدياته)، وفراشة فخمة، ...

قبل بداية الحفل، سلم كل معلم - كتذكار -، بروازا لآية قرآنية بلون الذهب.

قرأ سرحان - مقدم الحفل -، كلمة مدير المدرسة - المكتوبة -، توالت الفقرات، يقول سرحان - بفخر -، بين الفقرة والفقرة:

نحن الآن، في انتظار سعادة مدير الإدارة، وضيوفه الكرام.

نظرات بخيت متوترة، استحالت سُمْرته إلى سواد مُحْمر، سَرَتْ تهكمات البعض في خفوت، أعطى - أخيرا -، إشارة الإذن بالعشاء - الذي تأخر كثيرا -، قال كامل:

كيف يأتي مدير الإدارة، (لِورِع) مثل بخيت؟

جرَتْ سبَّابةُ خليفة، أسفل أنفه المزكوم، معلقا:

ضاع عشمه في النقل، إلى مدرسة أكبر.

قَرَّبَ سرحان بين حاجبيه، متلبسا دور المغتم.

لم يقرَب فمُ بخيت الطعام، خليطٌ هائل من بدو وعمال ومعلمين، لحمٌ كثير - فائض - إلى بيت نصار انتقل، ولحم أكثر وارتة القمامة.

...

ألقَى بخيت - العابس -، بتحية صباح الغد، اهتزت بيده بضع وريقات، قال:

هذا(تعميم) حكومي - أي نشرة -، لعله سبب إحجام المدير عن الحضور... :

كل مصالح الديرة - ومنها مدرستنا هذه -، ستئول تبعيتها لمحافظة الطائف، من يُرِد البقاء بالمدرسة، وانتقال تبعيته للطائف، يكتب طلبا بذلك، ومن يُرِد استمرار تبعيته لبيشة، والانتقال لمدرسة أخرى، يكتب طلبا أيضا.

سادت بلبلة.

انتفخ صدر ماجد، فـ (رانيا) - موطنه - تتبع الطائف أساسا، صاح في نبرة وسْطَى بين الجد والهزل:

سأصبح المدير.

اختار بخيت ورفاقه، العودة إلى محافظتهم.

قال علي الشريف:

سأعود إلى مكة - إن شاء الله

أفتى عصام - الذي يعاني من مشاكل في التنفس منذ مدة -، أن هيئة الديرة ستتغير، وربما كل الواردين عليها، من الخفير إلى الأمير.

قال مروان ناصحا:

اكتب على بيشة: هي محدودة مهما كان...، الطائف مترامية البَرّ، مئات من (الهجَر) والقرى النائية، العمل بالطائف نفسها، لم يزل حلما للوطنيين، فما بالك بالمتعاقدين؟

داعبت أنامله شعر عبد البديع، التي بدتْ عليه مظاهر الاقتناع.

...

فاجأهم إمام بالقدوم، منتفخ العينين، قال:

مصيبة...

وانخرط في البكاء.

بالخارج، كان خميس في انتظاره، مسح أنفه بطرف جلبابه، وهو يقول:

سيد المنصوري راح.

على عمق مترين توارت جثة سيد، بعد جنازة لا يتعدى مشيعوها العشرين.

اكتشفه زبائنه - البدو - منتفخ البدن، متقوقعا كجنين متين، في بطن أمٍّ عملاقة، ومن حوله تدور عقاربٌ، وهوامٌ شتَّى.

انتقل من الإمارة، إلى المستوصف البدائي، ثلاجته (كالديب فريزر) بواجهة شفافة، رؤية الجثة مباحة للجميع، كمومياء بالمتحف، داخل صندوق زجاجي.

عشرون ألفا، يحتاجها نقل الجثة إلى مصر، فشلتْ فكرة جمع التبرعات، لم ير كفيلُه مبررا ليدفع هو المبلغ، كما زعم فشل وساطته، لدى أحد الأمراء، قال ضجرا:

ألا يكفي أن أوافق على دفنه هنا؟

إجراءات عديدة مبهمة تمت، انتهت بجثته أخيرا، إلى ذلك العمق تحت الأرض، ببقعة رملية مجهولة، تحوي العديد من المجهولين، تنهال الرمال، يوضع - يوم الدفن - بحجر عريض، ناحية الرأس، كعلامة لا تبقى - عادة - سوى أيام...

متى تعود امرأته إذن، من دار أبيها، مصطحبة ابنتيه إلى داره، تلك التي لازالت تشكو حاجتها، إلى السقف الخرساني؟

...

أمام حجرته، كوم إمام فراشه، مقيدا في سريره (السُّفْري)، (دَعْكَت) كف خميس عينيه المحتقنتين، قال:

سيد راح، وإمام مسافر(نهائي)، عُقْبَى لنا يارب.

...

لم يحتفظ عبد البديع بين أوراقه الهامة، إلا برقمَيّ تلفونين فقط، أملاهما عليه كلٌّ من خميس وإمام، رَدّاً على مَنْحِه لهما رقم تلفونه الصحيح، موصيا إياهما بالتكتم عليه.

وعلى صفحات نوتته الصغيرة، ذات الغلاف البلاستيكي الأسود، تحوَّل كل اسم من أسماء المعلمين، إلى مجرد رقم لتلفونه، سيكون - فرضا - الوسيلة الوحيدة، واليتيمة للتواصل.

...

انقضت الامتحانات، بَادَرَ الوطنيون - بعد عناقات آلية - بالمغادرة، يسيطر على المتعاقدين شرودٌ قَلِق، يقول عصام:

(كل واحد مع نفسه).

الحقائب متأهبة، صعد سرحان - بعد الحساب الأخير بالإيجار إلى العنود، ثم اختفى.

قال خميس:

(شرَخ) مع الوطنيين، والشيخ (أبو دماغين) حَطّ عند نصار.

- أضاف - كمن تذكر فجأة :.

على فكرة، واحد بدوي نازل بيشة، ومعه مكان.

- كم يأخذ؟

- (ميّه) وخمسين (بَس).

- النزول يا عم خميس...، النزول ...

- حاجاتكم هنا أمانة، (اللي) يرجع يخلّص (الغايبين).

...

لم تكن حبات البلح - على أمهاتها -، قد أكملتْ نُضْجَها بعد، تُخالِطُ خُضرتها صُفرة محببة، انتقى خميس أقربها إلى السَّواء، ثم أهداها إليه عشيّة الرحيل.

...

في الفجر، استقبلتْ السيارة الطريق، سرعان ما تجاوزتْ آخِرَ خيام

الديرة، لم يحاول عنقه الالتفاف إلى الوراء، تروغ عيناه هنا وهناك: تضاريسٌ قديمة باقية للطريق، وأخرى جديدة، قال البدوي الشايب. المتابع.:

- للبَرِّ يا ولدي كلُّ يوم أحوال، يوم أمين ويوم غدار، وأهل البَر ممَاتُهم فيه، وأيضا لهم فيه حياة.

- حكمة البدو غلاَّبة،...حكمةٌ في الذهاب، وأُخْرَى في الإياب.

...

بالإدارة، سيطر القلق على الوجوه، تجري عيون المتعاقدين، على الكشوف فوق الجدران، باحثة عن مواقعهم.

لم يعثر على اسمه بين المثبتين بمدارسهم، أوالمنقولين، أوالمُنتهية عقودهم.

تصدر مروان قائمة الإنهاء، ومن بعده جاء الرفيقان، ثم نصار، وبقية الشباب، عدا عصام. المنقول.

أصابه التوتر؛ ربما تعثرتْ. لذلك. وقائع السفر.

قال رئيس مكتب المتعاقدين:

عليك بوكيل الإدارة.

يتكيء الرجل على منطقة وسْطَى، بين أعلى مؤخرته وأول ظهره، فوق كرسيٍّ دوَّار، رافعا قدميه. فوق المكتب. في وجه الداخل، بدا أن الطرف الآخر لمكالمته. التي لم تنته بعد. أنثوي، غطَّتْ كفُّه فم السمَّاعة، سأل ناهرا:

(ويش) تبغى يا مصري؟

اسمي غير موجود بالقوائم.

مد شفتيه ضجرا، صاح:

رُح لسعد مشعل.

...

سأله سعد:

اسمك ومدرستك؟

عبد البديع الدمياطي، الديرة الابتدائية والمتوسطة.

اتسعت شفتاه دون ابتسام، وقَّع ورقة أمامه، ناوله إياها قائلا:

مدرسة (حبيَّة) الابتدائية.

أمام المكتب، جَمَعَه اللقاء بعادل، بدا وجهه أشد سُمرة، يعلوه حزنٌ غامض، استعادا معا، وقائع قدومهما الأول:

الفندق الرخيص، بحثهما عن صاحب الرسالة، لقاؤهما بذلك النائم البطيء

- الجزار -، غانم المصري (بشركة الباني للنقل)، وتغيير الجنيهات، ...

قال عادل:

أنا وزميلنا ممدوح مُثبتان، وهاشم - الذي ملأ الدنيا سخريةً علينا - تضارب مع الطلاب، ورُحِّلَ بعد شهر، ...، وأنت؟

لوَّحَ بالورقة في يده، قائلا:

حبيَّة الابتدائية.

ياخبر!.

...

من مكتب المتعاقدين، تسلم مظروفا أصفر، يحوي ورقة بالتجديد، والجواز، مع تذكرة تُحدد عصر اليوم موعدا للسفر.

سأل أحد العاملين بالمكتب:

أي المدرستين أفضل:

الديرة أم حبية؟

أجاب الرجل بنبرة غنائية:

نار (الديرية) - يقصد الديرة -، ولا جنة حبيَّة.

قال عبد البديع، بلهجة تجمع بين السخرية والأسى:

هذا والله، يصلح مطلعا لأغنية كئيبة.

خطف حقيبته اليتيمة، أسرع متوجها نحو المطار، أحسَّ بثقل في أحد جيوبه، امتدت يده داخل الجيب، خرجت (بنوتة) صغيرة، ذات غلاف بلاستيكيّ أسود، تملؤها الأرقام التلفونية، أسرعتْ نفسُ اليد، بإلقائها في عُرض الطريق، وانغلقت عيناه بارتياح للحظة، بعد أن شاهدتْ عجلات السيارات المتتابعة، تسحق أوراقها، فوق أسفلت الطريق...

يتردد بداخله - الآن - السؤال:

تُرى هل يعود؟

"تمت"

٢٢ديسمبر ٢٠٠١م

١٧ رمضان ١٤٢٢هـ

صدر للمؤلف

١. الحاجز البشري/قصص/الهيئة العامة لقصور الثقافة ١٩٩٦.
٢. صغير في شبك الغنم/ قصص/ الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠١.
٣. سمر والشمس / قصص للأطفال/ دار الإسلام للطباعة والنشر ٢٠٠٤.
٤. عام جبلي جديد /رواية/ مطبعة الإسراء /٢٠٠٦.

❖ له تحت الطبع:

١. طيف صغير مراوغ / رواية.
٢. دهس الطين / قصص.
٣. نبش في ذاكرة الحصار / قصص.
٤. الخروج الكبير/رواية
٥- لعبة الموت والحياة / مسرحية .

رقم الإيداع بدار الكتب
٢٠٠٧/٧٣٣٧